إسلام قطب

كرسى معسل



كرسي معسل

كلما اقتربت أكثر..
أدركت كم أنت بعيد!

«مولانا جلال الدين الرومي»

قصص

اسلام قطب



اسلام قطب/ من مواليد الإسكندرية عام 1983 تخرج من كلية الهندسة، ويعمل بمجال البرمجيات، شارك في كتابة عدة عروض مسرحية لفرق مستقلة بالثغر، وحصل على المركز الثاني في مسابقة جامعة الإسكندرية للقصة القصيرة عام 2004. له العديد من القصص والمقالات المنشورة على المواقع الإلكترونية؛ و"كرسي معسل" هو كتابه الأول.

قصص

....

كرسي معسل

الطبعة الأولى يناير 2015

رقم الإيداع: 2014/26949

الترقيم الدولي: 978-977-5154-39-2

الناشر
محمد البعلي

إخراج فني
علاء النويهي



دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

كرسي معسل

المحتويـــات

إهداء

إلى روح أبي الطاهرة، اللون الثامن المفقود من قوس قزح..

إلى رفيقة كفاحك وحبيبتك المخلصة لك في مماتك قبل حياتك أمي..

إلى أخواتي وزوجتي المستقبلية التي تسكن أحلامي كلما أغمضت عيني..

إلى كل امرأة أحببتها يوما ولم أبح...

إلى كل امرأة أحببتها يوما وبحت وافترقنا لأخلدها في كتاباتي داخل قصاصاتي الورقية..

إلى كل من آمن بموهبتي حد الإيمان بالأنبياء والرسل..

إلى كل من لم يؤمن بموهبتي حد التهكم والسخرية..

إلى كل هؤلاء أهدي هذه الوريقات التي كتبتموها داخلي دون دراية منكم بدافع من الحب.. أو التحدي

دوزنة

نشوة تلك التي تسري من صدرك إلى أطرافك تدغدغها، وتسري في عروقك حتى ترسو في رأسك، تنسيك هموم الدنيا، وتقلب حلوها على مرِّها، وذكرياتك على أحلامك على واقعك.. تأخذ مع كل نفس وأنت على كرسيك عسل الدنيا، ناسيًا متناسيًا ذلك الخليط بين الضدين، من الجمر المتوهج، والماء الذي يغلي من حرقة أنفاسك التي تقلبه وتستفز فيه الحياة، فتدب فيه الروح، فإذا هو ماء يسعى.

كرسي المعسل هو كرسي الحياة، مقام الدنيا وجانبها الواقعي الذي ينسينا أن في الدنيا أكوانًا موازية في بعد زمني يساوينا في التوقيت فقط، ولكنه يبعد عن عقولنا ملايين السنين الضوئية.. يعيش تلك الأكوان المهمشون والمجاذيب والمحبون والكادحون على لقمة عيش أطهر أو أحلى.. العابدون والملحدون والمترنحون على بوابة العدم.. المحتضرون والسكارى والمدمنون والمعذبون والراضخون الراضون بما قسم الله لهم حدَّ الاستكانة والذل.

كل هؤلاء يدورون كما تدور الأرض تحت أقدامهم، في فلك صوفي، بغية الترقي إلى الأعلى.. إلى الحد الأقرب من النشوة، متدرجين من

نشوة دخان كرسي المعسل، مرورًا بالانجذاب والسكر والتيه، إلى العدم، حيث ملاقاة الذات الإلهية، والانتشاء المخلد في الجنان.. يرون أنهم خُلقوا للدوران، ويرون في الدوران عبادة، ويرون في العبادة قربًا، ويرون القرب وسيلة لغاية الرضا، والرضا غاية لا تُدرَك، بل هو حلم نسابقه في حلقة دائرية.. كلما كثر الدوران، انقشع الضباب وزادت رؤيا البصر والبصيرة.. وكلما تسارع الدوران، زاد السكرَ والانتشاء.. و«كلما اقتربت أكثر.. أدركت كم أنت بعيد!».. عن ساكني هذه الأكوان الموازية نتحدث...

***

استكانة

أُخفِي الهَوىٰ ومدامِعي تُبْدِيهِ وأُمِيتُهُ وصَبابتي تُحْيِيهِ

«ابن الفارض»

أخذ يتمايل يمينًا ويسارًا، إلى أن ظهر له خيال من صورته المنعكسة على اللوح الزجاجي وهي تصارع واقع الأدوات المكتبية، والأوراق المبعثرة المسجاة على ذلك المكتب، والكرسي الوثير الأرجواني اللون، والملفات المصلوبة فوق الأرفف، في الغرفة القابعة خلف ذلك اللوح الذي يفصل بينه وبين الحياة إلا من طاقة ضيقة صغير حجمها، هي بمثابة طاقة القدر التي طالما حلم بها.

بدأ يتحسس تلك الثنايا التي بدأت تخط طريقها على وجهه.

قنوات طولية وعرضية متقابلة عند نهايات الأعين، ومتباعدة على جبهته.

أخذ سؤال يدور برأسه كلما نظر إلى المرآة، في الآونة الأخيرة:

هل هذا الوجه، بما يحمله من تجاعيد وهالات سوداء حول العينين، وذلك الشيب الذي بدأ يزحف على استحياء على الفودين، وأيضًا تلك الصلعة التي حاول أن يواريها وتفضحه بالتعري كلما داعبتها أضواء المصابيح في وقاحة، أو لفحتها أشعة قرص الشمس نهارًا، لشابٍّ في منتصف الثلاثينيات من العمر؟!

بدأ يدقّق النظر إلى وجهه مرة أخرى، في عناد مع ذلك اللوح الزجاجي، لتحديد ملامحه..

لوهلة ومض اللوح بصورة أبيه..

نعم، الشبه واضح بينهما، كأنه اجترار الزمن لأجيال ولَّتْ، على ملامح أبناء اليوم..

صورة والده ذات الشريط الساتان الأسود، المعلقة قبالة باب غرفته، قد وضعها بنفسه بعد وفاة والده،لكي تذكّره بأقواله المأثورة وحكمه التي حاكها من خبراته مع الدنيا، التي أخذت حقها منه كأنه ثأر جنوبي.

ينظر إليها كل صباح، وقبل أن يغفو على وسادته، يستمد منها الأمل والعزة، حتى مع عسر الحال وضيق الرزق.

صورة والده تلك المستكينة على الحائط، قد التُقطت له بعد خروجه على المعاش، أي أنه قد جاوز الستين من عمره.. فكان سؤاله الشاغل حين يلحظ الشبه بينه وبين صورة أبيه تلك، أنْ: كيف تتطابق الصورتان وتضيع ملامح قرابة الثلاثين عامًا من وجهه في غفلة من الزمن؟!!

بدأ يزيغ ببصره عن الزجاج هربًا من صورة أبيه التي استقرت في مخيلته أوضح منها على ذلك اللوح.

أخذ يميل يمينًامرةً، ويسارًا مرة أخرى كي ينفضها عن ذهنه، حتى أشاح بوجهه لأعلى كأنه غير مبالٍ بها، فيراها مرة أخرى مطبوعة في عناد على الساعة البيضاء المعلقة على الحائط أمامه، تصارع العقارب التي فشلت في دعسها بتلك الحركة الثقيلة الحذرة.

بدأ يرهف السمع إلى تكّات تلك العقارب..إنها تتحرك ببطء، حاملة على كاهلها أطنانًا من أوجاع الانتظار..

كأنها ثور كهل أعجف يدور معصوب العينين بساقية في لفحة الظهر..

نظر إلى ساعة يده، علّها تبرق له أملًا يتشبث به، فهو يتفاءل بتلك الساعة التي خلعها له والده وأهداها له عند نجاحه في الثانوية العامة.. مازال ينظر إليها على أنها المقياس الذي يجب أن تُضبط عليه كل ساعات الدنيا..

بالفعل لم تخذله ساعة والده هذه المرة، فساعة الحائط كانت بتوقيت جرينتش العالمي، حتى يتسنى لأي مسافر أن يعرف الوقت في بلده أو البلد المسافر إليه بسهولة..هذا هو الحال في مطارات العالم أجمع، كما هو الحال في مطار القاهرة الدولي.

تذكّر صوت أمه وهي تصرخ في زيغ وتيه غير ناظرة لعينيه:

- هجرة يا بني؟! يعني ما فيش لقا تاني خلاص؟!!.

كان يقف بين يديها واجمًا، كعادته منذ الصغر، عندما يفعل شيئًا هو مقتنع به، ويعلم أنه لن يلقى استحسانًا منها..

يقف مطأطئ الرأس مرتعش الخلجات..

ينظر إلى أي شيء هاربًا من عين أمه، خوفًا من أن يسلبه وهَنُ نظراتها عنفوانَ تشبثه بحلمه.

قال لها في تحشرج وجِل:

- لما استقر هبعتلك يا أمي.. هناك فيه علاج ودكاترة شاطرين.. دي ألمانيا يامّه.. ألمانيا!!

- تغور العيشة في بلاد برة.. الموت في بلدي وسطك أنت وأخواتك أهون!

قالتها وبكت.

تركها ململمًا أوراقه على أحلامه..

تأبَّط ماضيه البغيض متجهًا به إلى مستقبله المجهول، وسلك طريقه إلى السفارة الألمانية.

بدأ يتمتم في طريقه بصوت خافت، مراجعًا كل ما يحمل.. شهادة الميلاد, شهادة التخرج، أوراق إتمام الخدمة العسكرية، وظيفة هانئة، عيشة رضية، زوجة شقراء طويلة بيضاء، تحبه، يشترط عليها أن تُسْلِم قبل الزواج، وبذلك يكون قد أرضى ربه بحسنات إسلامها.

نعم، يُدخلها الإسلام ويغير اسمها إلى «مريم».. ذلك الاسم المقدس في جميع الديانات السماوية..

اسم يحمل نفحة من الطهر والنقاء والتُّقىٰ..

اسم يليق بمسلمة عفيفة، مطيعة لزوجها، لها وجه ملائكي بريء.

حلم أيضًا أن تنجب له ابنًا يشبهه ويشبه والده.. لقد وعد أباه يومًا بذلك قبل وفاته.. وعده أيضًا أن يسميه على اسمه، ذلك الاسم الذي

طالما افتخر لاقترانه به، كما سيفخر به ابنه أيضًا..

هكذا تدور دنيانا.. ننسلخ من آبائنا لينسلخ منّا أبناؤنا.

سؤال لم يَجُلْ بمخيلته.. والده كان أسمر اللون، مجعد الشعر، ملامحه تتلوى بصرخات مدوية: «أنا مصري حتى النخاع»، كيف ستنجب له تلك الشقراء الشمعية اللون سمار أبيه؟!

كيف سيسمّي ابنه «مصري» وهو بإرثِ عارٍ غربيٍّ من ملامح أمّه؟!

لم يكره في حياته شيئًا بقدر كرهه للانتظار، حيث تتباطأ الساعات، ويعلو صوت الملل، فتزيغ الأعين ملتهمةً كل ما حولها، ممشطة أرجاء الفراغ علّها تجد ما تتشبث به، ليختلس الثواني والدقائق من تلك الساعات.

اليوم وقع الانتظار أقوى وأعنف..

كان يظنه الأقوى والأعنف قبل ذلك بأسبوع واحد فقط، حين وقف منتظرًا للمرة السادسة نتيجة المقبولين في الحصول على تأشيرة الهجرة، أكثر من ثلاث ساعات في السفارة الألمانية.

نعم، يسميها المصريون الهجرة إلى الخارج..أي خارج أيًّا كان، فالداخل لم يَعُدْ يسعهم..

صار الداخل بالنسبة لهم قفصًا يحبس أحلامهم ويسلب منهم الكرامة والحياة شيئًا فشيئًا.

هو مثل أبناء بلده، لم يجد في ذالك الداخل بيتًا ولا عملًا ولا زوجة..

توسَّدَ حلم الخروج نائمًا، وتأبَّطه ذهابًا وإيابًا، طارقًا أبواب كل السفارات التي يمر بها..كلما رفضته سفارة ما، شعر بمدى حقارته وهوانه.. كائن طفيلي منبوذ يحيا عالة على وجه الأرض.

كلما رفضته سفارة ما، عاد إلى بيته ليواجه تفرُّس أمه وإخوته في وجهه.

نظراتهم التي تتحسسه تصيبه بقشعريرة باردة.. تنهيدة الراحة التي تعلو بها صدورهمحينما يرون جرحه الغائر من رفض السفارة له، تنغمس في صدره.

كم رأى فيهم من الأنانية بحيث يفرحون في حزنه.. أصبح حبهم له وتعلقهم به قيدًا يكبله.

أصبح حلمه كابوسًا لهم.. ورقة سوف تقطع ما بينهم من دم وعشرة وذكريات ومحبة.

ورقة تعني له كل شيء، كما يعني لهم هو كل شيء.

في المرة الأخيرة، وقبل ذهابه إلى السفارة، دخل على أمه في مخدعها، طلب منها أن تسامحه وتدعو له.. قبَّل يدها بعد أن مسحت بها دموعها.. أمطرته بوابل من الدعوات أضاءت أرجاء الغرفة بنور رباني، وفاحت من دعواتها رائحة مسك حانية احتضنته..

ربتت على رأسه وهو يقبِّل يدها.. انساب من بين أحضانها كما

انساب الدمع من عيونها.

تعلقت به عيناها كأنها تتشبث بدبر قميصه بنظراتها، وهو منهمك بلملمة الحلم بين طيات الأوراق التي أعيتها كثرة اللف على أبواب السفارات، وأهلكها تلقف الأيادي وتفحص العيون.

وقف بباب السفارة مع آخرين لم يجمعهم سوى الحلم ذاته..

عشرات الشباب في مثل سنه، يكبرونه أو يصغرونه ببضع سنين.. يحملون نفس ملامحه.. نفس النظرة المرتابة من كل شيء.. نفس الأوراق التي يحتضنونها..

صارت أحلامهم المطوية بين الأوراق بمثابة عصا موسىٰ لهم، فهم يحتمون بها من لفحة الشمس، ويجلسون عليها على الأرصفة أمام أبواب السفارات، ويلوحون بها لتنسم عليهم ما يقيهم من حر اليوم.. ولهم في أحضانها مآرب أخرى!

«عبد العزيز المصري.. إكسبتدّ!».

سمع الجملة السابقة وكأنها آتية من أحشاء أمه عندما حملت به.. كأنها تتردد بداخله منذ أن كان جنينًا.

سمعها اليوم كما سمعها في كل أحلامه.. نفس الصوت، نفس النغمة التي قيلت بها، نفس نسمة الهواء المصاحبة لها.

· سمعها كما لم تسمعها أمه في كوابيسها.. طار فرحًا كأنه فراشة راحت تلم رحيق الأزهار.. طار يودع كل ما له وما ليس له.

يودع تلك الأيام الخشنة، الصوفية الملمس، التي عاشها.

يودع أقاربه الذين لم يرهم منذ أن كان طفلًا، وفي المناسبات المتباعدة يشكشكونه بذكريات الصبا.

يودع أصدقاءه الذين أبعدهم عنه كثرة الهموم في رحىٰ الحياة التي فتتت ترابطهم وشتتت وصلهم.

يودع إخوته الذين طالما سهر يذاكر لهم، ويلوك الصخر مع الصبر والكرامة في العمل ليجمع مصروفاتهم.. كم كان حادًّا إحساس الماء المثلج وقطعة القماش الغارقة بداخله، وهو ينتشلها من الإناء ويعتصرها في حُنوٍّ ليضعها على جبهة أخته الصغيرة في حمَّاها، وكم كانت دافئة نظرتها له عند شفائها.

يودع الشارع الذي دبَّت قدمه عليه لأول مرة، متحررًا من جدران المنزل.. كم شهد هذا الشارع عراكًا بينه وبين رفاقه على احتساب هدف أو بطلانه، لمرور الكرة فوق كومة الأحجار التي يسمونها العارضة، واحتشادهم حولها كأنها كعبتهم، ونفورهم عنها كأنها الشيطان الرجيم.

يودع القهوة التي طالما جلس إليها ليلًا، هائمًا مع إحدى أغنيات الست التي أتلفها صوت التسجيل.. يصب الشاي الزردة من الإبريق، فيصدر وقعًا متجانسًا أخاذًا، مع زغاريد من فقاعات حائمة على سطح الكوب.. يرشف من استكانة الشاي بالنعناع عبق تاريخ مصر المتبعثر على أرصفة شوارعها القديمة وحي الحسين.

أخذ يودع شيشته التي أعدها له «حمامة» مخصوص، بوضع

المعسل «دوبل» خلسة من المعلم «ربيع»..

- وعندك أحلى شيشة عثمانلي فيك يا بر مصر للأستاذ زيزووو!!

«حمامة» الذي بكى وهو يعد له الشيشة وكوب الاستكانة ليلة أمس، إنه يعلم أنه الفراق.. نظر إلى زيزو نظرة أخ واحتضنه.. أخرج زيزو من جيبه عشرة جنيهات وضعها في جيب «حمامة» دون أن يشعر.. انصرف «حمامة» هربًا من ثقل لحظات الوداع.

جلس زيزو يسحب من شيشته آخر أنفاس مصر الفاطمية، يود لو يملأ صدره بها ويحتفظ بتلك الأنفاس في صدره، فينفث منها كل ليلة باردة ستمر عليه في تلك البلاد البعيدة.. نفثة واحدة تدفئه وتذكِّره بمصر ومن فيها.

تذكره بحضن أمه، وصوت المساجد في أذان الفجر.

تذكره بتهاني الأهل والجيران بعد صلاة العيد.

تُحْيِي في داخله روح التُّقَى والصفاء، وذلك الإحساس السحري لليالي رمضان.. خشوع قلبه ليلة السابع والعشرين، وكيف تكون صلاة التهجد بين بكاء الخاشعين وندم الخاطئين وأنين الراجين.. انفضاض المصلين من المساجد كمن يخرجون من الاجداث توسوس لهم نفوسهم: أهي ليلة القدر فعلًا؟ فيتمناها مَنْ غَنِمَها، ويرفضها من فوَّتها.

تذكِّره حتى بحمامة وهو يبكي اليوم فجرًا، حاملًا حقائب زيزو يرقدها فوق التاكسي مودعًا.

يبتعد التاكسي في طريق ضبابي، من خلفه تتلصص الشمس على من تشرق، ومازال القمر متشبثًا بالحياة كأن كليهما، الشمس والقمر، قد اجتمعا لتوديع زيزو قبل السفر، حيث ستشرق عليه في بلده الجديد شمس أخرى وقمر آخر..شمس لا تدفئ وقمر لا ينير.

يمضي زيزو إلى المطار بحلمه الواهي وفي عينيه نظرة ثبات تداعبها الدموع.

***

ما زال زيزو منتظرًا خلف ذلك اللوح الزجاجي، وقد بدأ التوتر يلتهم ملامحه ويرعش خلجاته.

رأى تلك الفتاة التي قد استلمت أوراقه من طاقة القدر في شباك الجوازات، آتية داخل الغرفة خلف الحاجز في زيها الأنيق، وذلك الإيشارب الأحمر المعلق في رقبتها، وعلى شفتيها ابتسامة مصطنعة كأنها تكمل بها أناقتها..

سلّمته الأوراق بعد أن ختمتها وقالت له في حسم:

- اتفضل استريح.. الطائرة ستقلع بعد ساعة ونصف إنشاء الله.

استلم منها الأوراق في تيه، وجلس على إحدى الكراسي الممددة في ساحة الانتظار.

بدا عبد العزيز واجمًا زائغ البصر، بين الحين والآخر يفتح جواز سفره، يفر أوراقه كأنها أوراق كوتشينة يفنطها، ثم يتركها على المنضدة أمامه، ثم يعود إليها.. وهكذا.

مضى أكثر من ساعة، وبدأت حركة المسافرين تدب في الصالة في إيقاع متزايد، وبدأت نداءات تخرج من الأبواق المترامية في الصالة، تلملم المسافرين كأنهم طيور تسبح إلى أعشاشها.

«النداء الأخير.. على السادة ركاب الرحلة رقم 367 المتجهة إلى برلين سرعة التوجه إلى بوابة الدخول للطائرة..».

وهكذا هدأ الهرج والمرج رويدًا رويدًا، إلى أن خلت القاعة إلا من خشخشة نعال العاملين بالمطار التي يتردد صداها في أرجاء المكان. بدأت الطائرة تتحرك من خلف الزجاج في ساحة الانتظار، وبدأت ترتفع شيئًا فشيئًا حتى احتضنها السحاب وأخفاها.

على إحدى المناضد في ساحة الانتظار، استقر جواز سفر مصري مبلل بقطرات دمعية.. وخلف المنضدة كرسيٌّ خالٍ.

***

المولد

كل الأشياء تصبح أوضح حين تفسر . . غير أن هذا العشق يكون أوضح حين لا تكون له أي تفسيرات .

«جلال الدين الرومي»

يا فاعل الخير أبشر دائمًا بالخير

الركّ مش ع العمل يا ولدي

الركّ ع النية . .

الرك مش ع العمل يا بو السباع

الركّ ع النية

***

البنت حلوة قوي يا با عزيز

البنت حلوة قوي يا مّه زينب

البحر واسع قوي يا با يا بدوي

ياما غرّق مراكبية . .

واللي غرق في حب البنية

يا با مالووووش دية .

الجموع: اللـلـلـلـلـلـلـلـلـلـلـه.. صل على الحبيب المصطفى، اللهم صل

علييييييه!

هكذا كان يتسلل صوت المنشد والجموع من المريدين والدراويش والمجاذيب، من تلك البؤرة الوحيدة المضيئة في جنح الظلام.

يرنُّ الصوت كأنه فرس في حلبة سباق دائرية, يطوف بأرجاء الفضاء الواسع المحيط بتلك البقعة محملًا بالمهابة والرهبة والخشوع، ونامًّا عن حربٍ طاحنة تدور داخل جمرة النار تلك التي تلوح من بعيد.

يهفو ذلك الخليط من الغبار ورائحة الرطوبة التي تشع في المكان هاربةً من الحقول المحيطة والمتباعدة الأرجاء، مختلطًا بها دخان منبعث من أفواه الألعاب والأعيرة النارية، يشوبه روائح من أنواع شتى من المكيفات والمعسل ولفائف التبغ الرخيصة، فتصبغ النفس بالرهبة والوحشة والانقباض.

في كل خطوة تزداد الأنوار والأصوات والروائح وضوحًا, تزداد ضربات القلب، وتتوجس الأقدام وتتردد، ولكن يغالبها الشغف لدخول ذلك العالم الذي ينصهر فيه كل شيء بضده..

حلقات الذكر ورقصات الغوازي.. مجالس المشايخ والعلماء مع مجالس السكر والعربدة..المريدين والمجاذيب والشحاذين وكبار البلد والعمد والغفر واللصوص.

أفواه تناجي الله وتمدح المصطفى بأبلغ الكلام، وأفواه أعيتها المكيفات واللعنات والسباب.

البشر والحيوانات وغريبو الأطوار من الأقزام.

الراقصات العاريات، وزوجات وبنات الدراويش والمريدين في جلاليبهم السوداء الفضفاضة الواسعة والملس يغطي حتى فتنة الوجوه.

خلاصة من أهل الجنة وأهل النار في مكان واحد.. أشباح تكسر ستر الليل.

مع الاقتراب تتضح رويدًا رويدًا تلك الخيام المتهالكة المصنوعة من الخيش، المنصوبة على جانبي الطريق إلى المدخل كأنها تشريفة لاستقبال الزائرين.

على كل مجموعة من الخيام يرسو علم بلون مميز مكتوب عليه اسم الطريقة والمكان التابع له أهل هذه الخيام.

الأعلام الخضراء مكتوب عليها: «أهل الطريقة الصوفية - كفر إبراهيم العايدي، مركز بلبيس»، والسوداء مكتوب عليها: «أهل الطريقة الرفاعية - مركز أشمون»، والحمراء للطريقة البيومية، وهكذا.

تفوح من تلك الخيام رائحة الأطعمة الدسمة والمسبكة.

بمرورك تلك الخيام تكون قد دلفت إلى ذلك العالم السحري المخيف.. سر من أسرار الكون ينكشف أمامك.

ضوضاء وصوت فرقعة الصاروخ، وأصوات قهقهات فظة، مختلطة بأخرى رقيعة، واختلاط أصوات المنشدين بأصوات المنادين، هي

أكثر ما يمكن تمييزه وسط هذا الزخم.

«قرررررب قرب قرب.. تعالى عندنا واتفرررررج..».

الجميع يهرول.. صوت حلقات الذكر يتعالى ليربط الأرض بالسماء، يمسكها أن تميد بما عليها من ذنوب.

« الله.. حي.. الله.. حي».

صرخات الأطفال ونداء الأمهات.. طلقات من الأعيرة النارية تدوي بلا حزم, لا تدري أهي للتشجيع أم لتفريق كتلة بشرية تلاحمت في عراك دار بين أحد لاعبى الثلاث ورقات وصاحب النصبة لاكتشافه أنه لا توجد «سنيورة « بين الورق.

أفواه فاغرة تكشف أسنانها عن رخص المكيفات، والتدني الصحي، تعلوها شوارب أو تحتها وشوم.. تلك الأفواه يستخدمونها للأكل والشرب والنداء والصراخ، والبعض يُخرج منها نارًا، والبعض يذكر بها الله، والبعض يفتحها ذهولًا من ذلك الرجل المفتول العضلات الذي فك قيده الفولاذي الذي قيده به سبعة من المتطوعين.

العيون كلها زائغة, فالجالس في حلقة الذكر زاغ بصره إلى خيمة الراقصة «بدرشان» وتلك الصورة المعلقة لها على مدخل نصبتها، وتلك الكلمات التي تثير لعابه من المنادي:

- "الراقصة اللولبية.. تتحرك كالحية، وتدور المسرح كما الفرس.. "بدرشان" ست الحسن.. بدر البدور وقمر الزمان..".

الدراويش زائغو البصر إلى صواني الطعام من الثريد واللحم

المتراصة على الأرض في استسلام تام حتى انتهاء حلقة الذكر وانتهاء المولى من المديح.. أما الجالس في مجلس الغوازي فيزوغ بصره إلى ذلك الجسد اللين الغض الذي يتلوى أمامه.. يتحسسه بنظراته تلك فترتعش خلجاته ويتصبب عرقه، فتلفحه كلمات المنشد المتسللة من نصبة الحضرة المجاورة:

الصبر قبل البلاء يا روحي ولا البلاء بعده
خايف أرش الدوا يابا . . عيني يظهر البلاء بعده
ما تزعلوش يا أهل البلاء . . عيني بكره وراه بعده
واجب على اللى ابتلا يصبر على وعده
مكتوب ع الجبين . . أهرب منه فين ؟
وعدى وانكتب لازم تشوفه العيييين

الكل يهرول بغير هدف.. الكل يتكلم بغير معنى.. الكل يضحك بغير سبب.. الكل ينادي بغير مجيب..

"شهد!".

كلمة خرجت بصوت جهوري قطعت تأملي للعالم السفلي السابح أمامي كأنه حوض أسماك زينة.

المنادي رجل ضخم، يرتدي ملابس أشبه بتلك التي يرتديها اللصوص في الأفلام الكوميدية.. بنطال أسود ضيق، وفانلة بخطوط عرضية سوداء وبيضاء، مشمرة الأكمام وكاشفة عن عضلات أكتاف

مفتولة.

يلف معصمه الأيمن بقطعة جلدية سوداء تزينها رءوس مسامير فضية لامعة، قابضًا بكفه على وشاح أسود يتدلى من بين أصابعه الضخمة المكتنزة.

المنادى عليه طفلة لم تتجاوز العاشرة من العمر، ترتدي نفس زيه، كأنها نسخة مصغرة منه.

اقتربت الصغيرة منه في خوف وحذر، فنظر إليها نظرة حانية لا تتناسب مع هيئته.

جثا على ركبته وربت على كتفها, قال لها:

خايفة؟!!

لم تنظر إلى عينيه بل هربت منهما بالنظر إلى الأرض واكتفت بالإيماء برأسها.

انفجر الرجل ضاحكًا بطريقة هستيرية:

خايفة من أبوكى يا شهد؟!! أبوكى ناشانجي درجة أولى.. عمره ما حط هدف قدامه وصابه.

ثم عاد إلى ضحكه الهستيري مرة أخرى.

"نمرتك يا عم فرعووون..".

خرج ذلك الصوت من داخل تلك النصبة خلفهم، ليقطع المشهد

الدرامي بين شهد وأبيها، فنظر إليها بحنان وقبّلها بين عينيها ثم نهض واقفًا وحملها في خفة على ذراعه ودخل إلى النصبة التي كتب عليها:

"فرعون النشنجي.. قرب واتفرج".

داخل النصبة يجلس عشرات المتفرجين يتطوحون طربًا من صوت المنشد المتصبب من مسامّ الخيمة المجاورة.. يضحكون ويتناوبون مد الأيدي والأرجل أحيانًا وكأنهم سكارى, يتدافعون على المقاعد الخشبية المتهالكة التي يجلسون عليها.

يدخل فرعون حاملًا "شهد" في يده اليمنى، وممسكًا بخمس سكاكين كبيرة لامعة براقة.

وقف فرعون صامتًا على جانب من المسرح المنصوب تحت قدميه.. في عيني فرعون نظرة تتلعثم بين الثقة بالنفس والشراسة والغموض.

بدأ السكون ينساب داخل الخيمة، وفرعون وشهد لا يتحركان كأنهما تمثالان يرمقان الحاضرين.

سكن كل شيء في النصبة تمامًا، إلا من صوت المنشد الزاحف داخل النصبة في حذر.

تقدم فرعون وما زال حاملًا شهد بتلك اليد الفولاذية إلى الجانب الآخر من المسرح، حتى وقف أمام اللوح الخشبي القائم على أقصى يمين المسرح، والمسمى بـ"العروسة"؛ لأن عليه رسمًا لإحدى

الغجريات وهي واقفة مستندة عليه.

وضع أحد المساعدين لفرعون كرسيًّا خشبيًّا صغيرًاأمام العروسة.

أفلت فرعون "شهد" فانسابت من بين يديه في حنان واقفة على الكرسي الخشبي في استسلام وثبات،مسندة ظهرها على العروسة فأخفت جزءًا من الغجرية المرسومة.

ظهر من العروسة على استحياء ندبات غائرة في الجسد الخشبي، خلفتها سكاكين فرعون في ليالٍ سابقة.

أخذ فرعون يتحرك عائدًا إلى الجانب الأيسر من المسرح في خطوات استعراضية، وكأنه أسد يتباهى بقوته وهيبته.

كان يمسك إحدى السكاكين في يده ملوحًا بها في وجوه الجالسين، فتهتز أجسادهم فزعًا برغم تلك الشوارب التي تعلو أفواههم، وتلك الأجسام القوية البنيان، والأيدي الخشنة، والأصوات الجهورية، ورغم ذلك فالكل أمام فرعون سواء، الكل أمامه جبناء.

يتحرك فرعون ذهابًا وإيابًا على المسرح وكأنه ساحة معركة.

الأعناق والعيون كلها تتابعه في ترقب لتلك السكاكين الخمس التي ستلقى لتصيب العروسة دون أن تخدش "شهد".

وقف فرعون في أقصى يسار المسرح، وقام أحد المساعدين بربط عينيه بالوشاح الأسود.. أمسك بالسكين الأولى وسط سكون مهيب من الحاضرين.

سمع فرعون صوت المنشد هامسًا في أذنيه:

ربي مالي سند غيرك ولا لي حد
تكرمنا جميعًا يا رب ولا تحوجش حد لحد
تكرمنا جميعًا وكرمك طبعًا مالوهش حد
امشي ف طريقك عدل يا روحي مالكش دعوة بحد
علشان في ساعة الجلسة محدش بينفع حد
لا الابن ينفع أبوه ولا ابن الابن ينفع جد
فامشي ف طريقك عدل . . ومالكش دعوة بحد

الرمية الأولى:

يدنو إليها مسجاة بوشاحها الأبيض، بجوارها مصحفها ينير لها غرفتها من خلف تراقص دخان أعواد البخور على معزوفة الوداع الأخيرة.

يمشطها بنظرته الجامدة المعهودة كأن لا روح فيها..يتفحص أركان غرفتها عاليها وسافلها، هاربًا من غصة في نفسه وكمد يدمي روحه ويعتصر قلبه حزنًا عليها..يتصبب عرقًا كأن كل خلية في جسده تبكيها إلا عيناه، ذلك العضو الصامد فيه.. وحدها عيناه تطيعه ولا تعصيه.. طوَّعها كي تصبح عضوًا ميتًا في جسد يتنفس أحاسيس.

لا يدري منذ متى وعيناه تبصران فقط ولا تدمعان.. يذكر يوم

انهال عليه أقرانه الصبية في الحي ضربًا مبرحًا وعاد إلى جده باكيًا، فرمقه الجد بنظرة أكثر إيلامًا من اللكمات الخاتمة على وجهه وجسده.

كفٌ من جده أصابته فأوقفت الدمع في عينيه وأعادت إليهما كل ما ذرف من دمع طيلة حياته.. قال الجد له في نهر:

- «دمع الرجل بكارته!».

ظلت تلك الجملة تتردد في مسامعه بنفس النبرة الجافة كلما قست عليه الدنيا، أو اشتد عليه الألم، فأمسك على عينيه الدمع.. لم يذكر أنه دمع يومًا بعدها.

عاش حياته صائنًا لشرفه مجاهدًا نفسه حتى جفت الدموع في عينيه.. لم يدمع حين فقد أعز أصدقائه أمام عينيه أشلاء في الحرب.

لم يدمع في الأسر وسياط العدو الغاشمة تصرخ ألمًا على ظهره، تحرث لحمه خطوطًا طولية وعرضية فتستجيب العين وتمسك عن الدمع.

لم يدمع حتى وهو يفقد والده ويراه يخمد من جبروته إلى هوانه رويدًا رويدًا كأن الموت حائر في جسده أين الدخول.. يموت أمامه في كل لحظة مصارعًا مرضه العضال.

عين كعيون التماثيل لا تخشع لجليّ..

اليوم يطلق لعينيه العنان، فتؤثر هي العبودية، اليوم لزامًا عليه أن يبكيها وتأبى العين.. تعصيه لأول مرة.. جفت قنواته الدمعية كنهر

الأردن.. أرض جدباء موحشة.

تشقق لحم خديه تعطشًا لملح دموعه.. يعتصر مقلتيه بجفنيه علّ الدموع تغفر لأمه وترحمها في موتها، ولكن هيهات!! أبعد الحمل بأعوام يشخب النهد لبنًا؟!

يتساءل: إذا لم يبك أمه في فراقها فمتى يحين البكاء؟!

تمر السنون ويمسكها لحمة حمراء في حجم كفيه على أنغام معزوفة الاستقبال الأول، يقبِّل جبينها، يبلل خديه وجهها الملائكي الدقيق الملامح دمعًا مالحًا.

اليوم عرفت الدموع طريقها إليه.. اليوم بكى من معجزة الخلق الربانية.

طرح الحياة من شجرة العدم رآها..ابنته قطعة من كبده دبت فيها الروح.. انفجر باكيًا ميراث الأجداد والآباء والسنين العجاف.

اليوم بكى كل شيء فاته البكاء عليه حزنًا أو فرحًا..اليوم استراح من هموم أثقلته، تذوب جبالًا ثلجية في عينيه.

عاش زمنًا صائنًا لشرفه، واليوم معجزة يدمع أمامها لاعنًا صوت جده.. اليوم يدمع معلنًا ألَّا بكارة للرجال.

أبدًا تحنُّ إليكمُ الأرواحُ ... ووصالكمْ رَيحانُها والرَّاحُ
وقلوبُ أهلِ ودادِكمْ تشتاقُكمْ ... وإلى لذيذِ لقائكم ترتاحُ
وارحمتًا للعاشقين تكلَّفوا ... سَتْرَ المحبَّةِ والهوى فضَّاحُ

بالسرِّ إنْ باحوا تُباحُ دماؤهمْ — وكذا دماءُ العاشقين تُباحُ
فتمتعوا فالوقتُ طابَ بقربِكمْ — راقَ الشرابُ وراقت الأقداحُ
يا صاحِ ليسَ على المحبّ ملامةٌ — إنْ لاحَ في أفقِ الوصالِ ملاحُ
لا ذنبَ للعشاقِ إنْ غَلبَ الهوَى — كتمانَهُمْ فنَما الغرامُ وباحوا
سمحوا بأنفسِهمْ وما بَخِلوا بها — لمَّا رأَوْا أنَّ السَّماحَ رَبَاااااحُ!

الجموع: اللللللللللللله.. اللهم صلى على كامل النووووووووور!!

الرمية الثانية:

ارتعد قلبه خفقًا في هذه الساعة المتأخرة من الليل، مع ارتعادة هاتفه الجوال الذي دبت فيه الحياة فجأةً باسم المحبوبة الهاجرة، وصار يتراقص في مرقده على صوت موسيقاه وإضاءة شاشته، كأنها الزفة التي كان يحلم بها معها, أضواء ورقص وموسيقى، لا ينقصه سوى حُلّته السوداء، وهي في ثوبها الأبيض الناصع البراق كأن النهار قد سكن بين لآلئه.. بثوب أبيض أو بدونه، الأهم أن ما ينقصه هو هي.

نعم، تهللت أساريره، ولكن سَرَتْ إلى نفسه مسحة حزن على ما جرى بينهما، وكيف أنها ابتعدت عنه ظنًّا منها بأن في تهديدها له بالهجر وسيلة لتحسين العلاقة بينهما، ونسيت أن التهديد بالهجر ليس إلا بوابة لدخول الجفاء والشك للقلوب، وإعادة التقييم بعد إشهار الأسلحة في الوجوه، وتخيير بين موتين: الفراق أو الذل.. ولم

يكن للذل معنى ولا وجود له في قاموسه الشخصي، فكان الفراق غالبًا.

سكن الهاتف وانطفأ نوره يائسًا من الرد، ومعيدًا إلى غرفته ظلمتها، وإلى قلبه وحدته، وتركه إلى غياهب الغربة تتقاذفه كالكرة المطاطية.

مر على فراقهما قرابة العام، والآن تبعث إليه برسالة قصيرة تطلب منه السماح والرجوع!!.

قرأ الرسالة في وجوم، كأنها رسالة فراق وليس طلبًا لفرصة أخرى لإحياء ما فات، وإصلاح ما أفسدته بيدها، وما زادت عليه الأيام بعدها من تكسير في نفسه وفي عمره الذي زاد أعوامًا وأعوامًا في عام الفراق.

كم انتظر تلك الرسالة! وكم سخرت منه لياليه من خذلانها! الليل يعده بالنهار، والنهار يعده بالليل، وما بينهما وحدة وشجن واشتياق ولوعة.. وعمر يمضي.

تتضارب في ذاكرته كل ليلة مشاهد من الحنو بينهما، فيرق لها قلبه، ويختتم الليل بمشهد من مشاهد الفراق يتوسده ويجترُّه كوابيس وأرقًا.

عام كامل من الخذلان يفترش حياته، ولم يستطع أن يستقوي على كرامته ليحدثها ويشكو إليها لوعة البعد.

كرامته سمة من سماته الأساسية، هي تعرفها جيدًا بحكم ما كان بينهما.. كرامته تلك التي سهر على تربيتها كأنها ابنته.

صارت كرامته أكبر حتى من قسوة الليالي والأيام، وكان عشمه في حبيبته وما لاقته في حبه لها أكبر من كرامته، فكتب فيها:

أنا اللي كنت فاكرني كعبتك ونسيت آيات . . جعلت لك الأرض طهورًا

هنيًّا لك الأرض بطهرها أو نجسها . . فالفرض فيا لن تعوضه الصلاة دهورًا

كتب ليقينه أن ما عنده لن تجده مع من سواه.. كتب ليقينه أنها يومًا ستعود. لكن طال الانتظار، فأصبح حلمًا، وبعُدَ الحلمُ حتى أصبح كابوسًا، وتوحش الكابوس حتى صار شبحًا يطارده في وهج النهار، ويستسلم بجواره ليلًا يخزه بالذكريات.

الليلة حدثت المعجزة بعد أن ارتمى في أحضان الوحدة ساقية الذكريات، واعتراه اليأس، واصطدم بحقيقة انتهاء زمن المعجزات.

لم ينم ليله.. قرأ رسالتها عشرات المرات كأنه يشتمُّ فيها رائحة حبيبته..قرأها كأنه يسمعها بصوتها الذي كان يذيب فيه كل همّ.. قرأها كأنهارتخرج من بين شفاهها المسكرة المتعلقة كالجسر بين هضبتين من الوجنات المكتنزة الناعمة، المفعمة بمزيج من الأنوثة الصارخة والبراءة الطاهرة.

قرأها في كل مرة كأنه يقرأها أول مرة.. قرأها كأنه لم يقرأ من قبل شيئًا.. قرأها حتى غفا وغط نومًا.

لأول مرة ينام بهذا العمق والراحة.. راحة أفقدته الزمن، وأنسَتْه حتى الرد على رسالتها ليلًا.

استيقظ نهارًا في نشاط، والتقط هاتفه المسجى في ثبات بجواره.

قرأ الرسالة.. لعله كان يحلم بها كعادته كل ليلة.. اليوم وجدها حقيقة متجسدة أمامه بحروفها العطرة وكلماتها الحانية.

أغمض عينيه في نشوة الظافر، وأخذ نفسًا عميقًا ورد على رسالتها في اقتضاب:

مستحيل!

مرة أخرى غلبته كرامته وخدعته..لم يدرك وهو يكبس أزرار هاتفه بهذه الكلمة القاسية أن الكرامة عاقر, لن تنجب لأمه الحفيد الذي طالما حلمت به.

لا تُخْفِ ما فعلَتْ بكَ الأشواقُ   واشرحْ هواكَ فكلُّنا عشاقُ
فعسَى يُعينُكَ من شكوتَ له الهوى   في حَمِلِهِ فالعاشقونَ رفاقُ
قد كان يَخْفَى الحبُّ لولا دمعُكَ الـ   جاري ولولا قلبُكَ الخفَّاقُ
لا تحزنَنَّ فلسْتَ أولَ مغرم   فَتَكَتْ به الوجناتُ والأحداقُ
واصبِرْ على بُعدِ الحبيبِ فربَّماً   تمَّ اللقاءُ وللهوَى أخْلاقُ!

الجموع: الللللللللللللللللللللللله.. مدد يا خير خلق الله مدد!

الرمية الثالثة:

ينظر إليهم في حُلَّته الأنيقة الفاخرة كأنه كائن فضائي يرى البشر لأول مرة.. عاقد الحاجبين، مشبك أصابع يديه إلى صدره.

ترقد ساقه اليمنى على اليسرى في شموخ الملوك والسلاطين.. ماطًّا شفتيه في استعلاء وكبر مفتعل.. تتلاعب الأضواء على

أجسادهم التي تتلوى كالأفاعي أمامه، رافعين أيديهم ذات الأكف المفرودة كأنهم يحملون الشمس أن تسقط..

تدب الأرض أرجلهم في حماس صبياني طائش، ويرفعهم عن الأرض إيقاع صاخب حد الطيران.

يرى تباعد الأرض عن أقدامهم بمثابة حلم لم يتحقق له من قبل.. إعجاز..لم يذكر يومًا أن فارقت قدماه أرضًا، ظنًّا منه أنه بذلك يحيا حياة رزينة, فكل خطوة يخطوها في ثبات محتضنًا بقدميه الأرض التي يرسو عليها في حذر كأنه يختلس الخطا.

يرى المس الشيطاني يتلاعب بهم في سكرة النشوة، مع أبواق السماعات السوداء الضخمة المتناثرة في المكان، مصقولة كأنها زنازين حُجز فيها آلاف العبيد وملايين الجلادين تعذبهم بسياطها، فيصدر عنها صوت صراخ صاخب يأخذ القلوب قبل الآذان.

رجل يقف خلف كومة من الأجهزة الكهربائية تخرج منها مئات الأسلاك، يتحكم بهم، تظهر على وجهه ابتسامة ظفر سادية, يراهم عرائس ماريونيت في يديه.

لم يسلم يومًا لأحد إيقاع حياته، فحياته لها إيقاع قد اختاره ووزنه بعقله الذي قيل عنه «يوزن بلد»..

أخمد دقات قلبه حتى إنه لم يعد يشعر له حراكًا داخله، فصار أقرب إلى قلوب الموتى.

آمن بفكرة أن الناس قد خلقوا متحدثين، فتميز الذين وهبوا بلاغة

الصمت، فكان أكثرهم تميزًا وبلاغة.

لطالما كره الأعراس لما تحويه من هرج وصخب..تدك السماعات الأرض في عنفوان، فيصرخ الحاضرون في جنون..

نشوة ترعش الأجساد وتداعب القلوب وتذهب العقول..

يرى في عيونهم تحديًا سافرًا لكل ما هو جامد، وصرخات عنيدة يثبتون بها أنهم أحياء ومازالوا بشرًا..

تزيغ أبصارهم عنه كأنه غائب، ففي نظرته تأنيب لضمائرهم التى أماتوها لبضع ساعات يثبتون فيها باعتزاز أن الجنون والخطأ صفة بشرية.

تتعالى أصوات الضحكات إلى مسامعه كطلقات الرصاص الحي.. تلدغه كأذناب العقارب في كل خلية في جسده.. يطاردها بين الحاضرين ليعرف لها سببًا فلا يجد.

يزداد ضجرا بكل ما حوله..

ينظر إليه الحاضرون مثالًا للوقار والاتزان والنجاح، وتنظر إليه فتيات العائلة مثالًا للرجولة في أبهى صورها، يشوبها ثقل غامض أخاذ.

يداعب الفضول عيونهن فيتلصصن إليه بين الحين والآخر، ويزيغون بها عندما تتلاقى بعينيه من فرط الهيبة.

يزداد الحاجز بينه وبين الحاضرين كثافة تعميه، ويزيدها ثقلًا وهج الأضواء المنعكسة من الملابس اللامعة البراقة والدخان الصادر

من حيث لا يعلم، إلا من صوت الفحيح الذي يقطع الإيقاعات.

كعادته في الأعراس يهب واقفًا فجأة، ويشق طريقه وسط الأجساد والكتل اللحمية التي عجزت الملابس عن احتوائها.

يلتصق على حلته من تلك الأجساد عرق مطعَّم بخليط من أجود وأفخر أنواع العطور ذات الإيقاعات الفرنسية، تكاد تنافس في قوتها إيقاعات الموسيقى الزاعقة في المكان.

يصل إلى مبتغاه، فيحتضن العريس في حنو ويسلم على العروس في وقار الفرسان، متمنيًا لهما حياة سعيدة، ويهرع هاربًا من القاعة وسط نظرات الحاضرين، يشعر بها تتشبث بظهره حبالًا بالية تسأله الانتظار.

يخرج من الباب كأنه يونس يلفظه الحوت..ينتشي هواءً هادئًا في شهيق البعث الأول.

يشعل سيجارًا كوبي الصنع، ويسلك طريقه إلى مسكنه الكائن بأرقى وأهدأ أحياء العاصمة.

تحتضنه أريكته الوثيرة مستلقيًا عليها بعد أن أرخى رابطة عنقه تحت ضوء خافت يزحف من مصادر غير مرئية.

يمسك بريموت كونترول تداعب أنامله أزراره في تلذذ، كأنما يداعب حلمات الصبايا، فتنبعث في المكان موسيقى ناعمة يرتعش فيها صوت أسطورة الغناء الفرنسية «إديث باف» معلنة بدء ملحمتها الشهيرة «لا فوول».

يلقي بالريموت من يديه على الأريكة، ويقف وسط المكان ممشوقًا مصلوب الذراعين في وضع استعداد، متمايلًا مع الإيقاع الكلاسيكي الذي يزداد جنونًا في ثقل، إلى أن يصل إلى ذروته، ويصل هو إلى ذروة النشوة في حركات أقرب إلى المس الشيطاني منها إلى الرقص، ولكن قدميه مازالتا تحتضنان الأرض.

يا مَليحًا قَد تَجلَّى ... فيهِ أَهلُ الحَيِّ هاموا

سِيَّما لَمَّا تَحلَّى ... وَحَلا فيهِ الغَرامُ

قُلتُ لَمّا لاحَ يُجْلَى ... وَانْجَلَى عَنّي الظَّلامُ

هَكَذا العَيشُ وَإِلا ... فَعَلى العَيشِ السَّلامُ

حَبَّذا لَمَّا سَقاني ... صَفْوَكَأْسِ الحُبِّ صِرفَا

وَحَبـــاني بِالتَّداني ... وَانْثَنَى جِيدًا وَعِطْفَا

مُبعِدٌ في القَلبِ حَلا ... وَجَلاَ عَنّي الظَّلامُ

هَكَذا العَيشُ وَإِلا ... فَعَلى العَيشِ السَّلامُ!

الرمية الرابعة:

يقف أمامها كأنه في محراب يتعبدها..لم تبهره أضواء المدينة بشوارعها المكتظة المتخمة بمن فيها، وما فيها من حياة لا تخبو ليلًا ولا تهدأ نهارًا، فالليل والنهار فيها مجرد زمن لا يؤثر في حياتها، بل يزيد من عراقتها وتقدمها.

وحدها بهرَتْه بوقفتها الشامخة في عزة وكبر وثقة..أصابته برعشة صافعة في جسده، فشلَّت حركته وأدخلته إلى عالم سحري

لا ألم فيه ولا معاناة.

أمامها نسي ما ينخر في عظامه الصلبة من غربة لا يد له فيها سوى السعي وراء لقمة عيش طيبة، وحلم بحياة أفضل يعتريه.

متخشبًا فاغرًا فاه واسع العينين يتأملها.

سبحان من أبدعها وشكلها على هيئتها!

استفزه غموض في عينيها، ودوامات الوهن والاستكانة التي تسكن ملامحها.. لم تتعمد إثارته أو تحريكه، فالشارع بالنسبة لها ليس إلا معرض وجوه.

إنها على طبيعتها الساكنة الهادئة، ناسية أن في بعض الهدوء إثارة أكبر.. لم تلحظه حتى, مجرد واحد من آلاف الزبائن التي ترزق بهم يوميًا لا أكثر، إن لم يكن أقل، فهو مازال محافظًا على مظهره القروي، بجلبابه الفضفاض، وشاربه الكث الذي ينسدل ستارًا على فمه، فيخفي خلفه قبح نحر الدخان والمكيفات على أسنانه المضبوغة المعوجة.

وجد في سكونها إثارة تشعل قيه نارًا لا خامد لها سوى الوصل..

لم يدْرِ كم من الوقت مر عليه وهو يلتهمها بعينيه الجاحظتين اللتين تشبهان عيون التماسيح..

اقترب منها مشدوهًا في خطوات حذرة، وبدأ قلبه يخفق في صدره كأنه سجين عنيد يقرع باب حجزه ثائرًا لحريته.

رأى ملابسها تنخلع عنها قطعة قطعة في ليونة غير عادية،

فازدادت عيناه جحوظًا واشرأبّت تتفحص المشهد في فضول المحروم.

لم ير في حياته جسدًا لامرأة بهذا التناسق والاكتمال.

جسد خال من العيوب.. تفحَّصه من شعر الرأس الذهبي المنساب على غرتها الخمرية ووجهها الملائكي، مرورًا بنهدها الكامل الاستدارة في بروز كأنه القمر في ليلة بدر تلفظه أضلعها في حنو رزين..

بطن بضة يتوسطها ثقب غائر كأنه كهف جمعت فيه كل أسرار الكون، أو كأنه نقطة بداية خلق أهل الأرض..

مرر عينيه إلى فخذيها المشدودتين كجذوع نخل أرض أجداده الممدودة إلى السماء منذ مئات السنين، تحمل تحت أوراقها أخصب ما في الكون..

انحدر به المشهد إلى الساقين والكعبين والأصابع المتناسقة المنتظمة كأنها حبات من اللؤلؤ المنظوم في مسبحة جده.

فرك عينيه بيديه الخشنتين، وأعاد النظر كرَّة أخرى يتحسس فيها الرقبة ذات العروق المنحوتة، واعتصر بعينيه نهديها حتى لانَا وطاعا اليه..

خرج لسانه يلملم ما علق على شفتيه من لعاب ثورته، وتدفق في جسده دفء سري إلى رأسه فتصبب عرقًا.

جسد صُبغ بلون خمري، لا زاد في انحناءات، ولا قل في بروز..

سبحان من أبدعها! تحفة فنية متجردة من أي ستار.

تقدم أكثر وأكثر وفي نفسه سؤال تفجعه إجابته: «هل هذه هي النداهة التى طالما بات ليله في حضن الطبيعة يحلم بها كوابيس وحلمًا، واحتلاما أيضا؟!!».

ازداد اقترابًا، فاقدًا السيطرة على جسده المتصلب في انجذاب صوفى متهالك، إلى أن اصطدم باللوح الزجاجي الحائل بينه وبينها، والذي لم يلحظه طيلة وقفته، فارتد كمن بعث للحياة مرة أخرى.

تحسس موضع الصدمة على جبهته في حرج، وهز رأسه نافضًا عنه ما علق به مما رأى.

آلمه أكثر من الاصطدام ضحكاتُ المارة في الشارع، واكتشاف أنهم كانوا يتابعونه من بداية وقفته في سخرية، ثم زاد من حرجه خروج العامل من خلف المانيكان العاري وهو ينهره ويتفحص الزجاج مكان الصدمة في حنق، ثم انفجر ضاحكًا مع الباقين بعد أن اطمأن الى أن الزجاج سليم.

هرول مسرعًا إلى مقصده، وضحكات المارة سياطٌ تجلد ظهره بلا شفقة ولا رحمة.

وصل إلى حجرته الخشبية البالية التي يسكنها فوق سطح أحد المباني القديمة في وسط المدينة، وجلس أرضًا مفترشا قطعة من الجبن على شقة خبز التهمها في وجوم، ولف ما بقي منها ثم واراها في قفة معلقة في مسمار صدئ على أحد الجدران.

أطفأ ضوء المصباح وانساب أرضًا في أحد الأركان على وسادة عفنة، وتحت غطاء مهلهل مرقع أغمض عينيه.

في هدوء فتحت باب الحجرة وأوصدته خلفها قاصدة الركن الذي ينام فيه.. زحفت إليه عارية تمامًا كما رآها نهارا..رفعت الغطاء عنه وانصهرت بسخونة جسدها بجواره تدفئه تحت نفس الغطاء، بعد أن دبت فيها روح بشرية بأنفاس وحركات وتأوهات.

سبحانكَ اللهمَّ جلَّ عُلاكا	لطفًا بعبدِكَ خالقي رُحْماكا
يا كاشفَ البلوَى أتيتك راجيًا	أرجو رضاكَ فليس لي إلّاكا
إنْ كان حظي في الحياة قليلَها	فالصبرُ يا مولايَ فيه رضاكا
ما حيلتي والعجزُ غايةُ قوّتي	فإذا قضيتَ فمن يرُدُّ قضاكا ؟ !
وجّهتُ وجهي نحو بيتك داعيًا	يامَن تجيبُ العبدَ إذْ ناداكا
بك أستجيرُ ومن يجير سواكا ؟	فارحم ضعيفًا يحتمي بحِماكا
ياربِّ قد أذنبتُ فاغفرْ زلّتي	أنت المجيب لكل من ناداكا

الرمية الأخيرة:

سيطر عليه هذا الإحساس منذ الصغر.. لم يَدْرِ مَن تنبأ له أنه سوف يموت صغيرًا..

عاش حياته خائفًا من الموت، كأنه هارب من حكم بالإعدام.. عاش متواريًا من كل متع الحياة، والسبب تلك النبوءة.

تملّكه هذا الإحساس طفلًا وشابًّا، حتى انه رفض أن يتزوج مبررًا

أنه لن يرضى أن تترمل من سوف ترتبط به في عز شبابها..

قطع شرايين الحياة في داخله..عاش بقلب لا ينبض بل يرتجف خوفًا..عاش وعلى عينيه عصابة بها ملايين الأشباح، تحمل له الأكفان وتطارده أينما ذهب.

عاش وفى أذنيه يتردد صدى أنفاسه.. يترقب أيها سيكون الأخير.. شهيق.. زفير.. شهيق.. زفير.. شهيق.. زفير.. وما بين الشهيق والزفير تمر اللحظات والدقائق والساعات.. والسنين.

كم تمنى لو هتك أستار كل عرافي الكون.. تمنى أن ينظر في عيون الغربان.. أن يطارد ذيول القطط السوداء في أحلك الليالي.. أن يوشم على صدره الرقم 13.. أن يصرخ في وجه نبوءته ضاحكًا ومقهقهًا، معلنًا أنها لن تتمكن منه، وأنه سيحيا رغم أنوف كل نبوءات الكون.

قهره عجزه أن يكون مثل أوديسيوس حين صرخ محتجًا في وجوه الآلهة جمعاء، غير آبه بغضبهم الذي سيصب عليه دهورًا..

كم تمنى أن يحقق إحدى هذه الأمنيات، ولكن الموت قد يداهمه في أى لحظة.. فاستسلم.

فجأة اكتشف أنه قد وصل الثمانين من عمره.. ثمانون عامًا مرت عليه ولم يعش منها لحظة واحدة.. مرت عليه وحده.. وحده فقط في حياة أشبه بحياة القبور.. بحياة الموتى.

نعم لقد تحققت نبوءته..

نعم لقد مات صغيرًا..

صغيرًا جدًّا..

الدهرُ ذو دوَلٍ والموتُ ذو عللٍ   والمرءُ ذو أملٍ والناسُ أشباهُ
يبكي ويضحكُ ذو نفسٍ مصرّفةٍ   واللهُ أضحكَهُ واللهُ أبكاهُ
يا بائعَ الدينِ بالدنيا وباطِلِها   تَرضَى بدينِكَ شيئًا ليس يَسْواهُ؟!
حتّى متى أنتَ في لهوٍ وفي لَعِبٍ   والموتُ نحوكَ يَهْوِي فاغرًا فاهُ
ما كلُّ ما يتمنّى المرءُ يُدْرِكُهُ   رُبَّ امْرِئٍ حَتْفُهُ فيما تمنّاااااااهُ!

ترتفع أصوات الحاضرين في سُكْرهم وتهليلهم من خلف سواد العصابة على عيني فرعون بعد نجاح سكينه الأخير في تفادي الهدف بدقة متناهية.

ترتعش يدا فرعون ويغزو العرق جسده المنتفض، وتتسارع أنفاسه غير مصدق أنه فعلها مرة أخرى بعد كل هذا العمر.

لم تفقد يداه مهارتها في تفادي أهدافه.. لم تفقده السنين قدرته على تحسس ما وراء الظلمات والعصابات.. لم يفقد بصيرته بتمشيط المسرح دون بصره.. والأهم أنه في هذه الليلة لم يفقد "شهد".

خلع العصابة عن عينيه، فأخذ مشهد ازدحام الحاضرين في الانسدال أمامه في تباطؤ، إلى أن اكتملت الصورة تمامًا كما كان يراها من خلف الحجاب.. وقعت عيناه على "شهد" كما تخيلها، بجسدها الضئيل، مستندةً إلى العروسة التي تراشقت عليها السكاكين الخمس في غلٍّ متشبثةً بخشبها.

ما زالت "شهد" مغمضة العينين، تقف في ثبات وتشبث أيضًا، حالها حال السكاكين الخمس.

اخترق فرعون المسرح غير آبه بالحاضرين الذين تشتت شملهم، ونفضوا الانبهار عن ملامحهم، فمنهم من خرج مسرعًا ليلحق بخيمة الغوازي قبل أن تنفضّ نصبتها؛ علّه يروي ظمأه الشهواني ولو بآخر رشفة من التلوي والارتعاش، ومنهم من لحق بالوليمة ينهم منها ثأرًا لجوع عام كامل.. وآخرون بلا هدف يتخبطون وتتلعثم أرجلهم بالكراسي المطروحة أرضًا في كل أرجاء الخيمة.

وصِل فرعون إلى "شهد"، وما إن أحست بحضنه حتى فتحت عينيها في تهالك، وزحفت يداها الدقيقتان حول عنقه تطوقانها.

رفع فرعون "شهد" على كتفه لتحية الجمهور.. رفعت "شهد" يديها لأعلى كأنها تلامس النجوم في تباهٍ.. رفع فرعون بدوره يده في عز، غير مكترث لتجاهل الحاضرين لتحيته هو وشهد.

خلا المكان من الحاضرين تمامًا إلا من فرعون وشهد، وصوت الكراسي الخشبية وهي تتألم من ضربها بعضها فوق بعض في قوة وسرعة لتحميلها فوق سيارات النقل.

على أرض المسرح جلس فرعون متربعًا وفي حجره جلست "شهد" مسلمة ظهرها لوالدها، الذي أخذت أصابعه تتلاعب بخصلات شعرها الناعم، تمشطها وتحيك منها ضفيرة غير محكمة، ما إن فرغ منها حتى قبّل رأسها واقترب من أذنيها هامسًا بشيء، فابتسمت ابتسامة ملائكية وافترشت حجره، وأغمضت عينيها وما زالت الابتسامة تزين وجنتيها.

***

النظارة السوداء

عذابُه فيكَ عذبُ وبُعدُه عنكَ قُرْبُ
وأنتَ عندي كروحي بلْ أنتَ منها أحبُّ
وأنتَ للعينِ عينٌ وأنتَ للقلب قلبُ

«الحلاج»

لافت للنظر أمرهما، حتى إنهما قد جذبا انتباهي من وسط كل هذا الزحام على الشاطئ، لم يلفت نظري ما تنطوي عليه كل شمسية من عائلات ونساء وأطفال حملوا متاعهم لقضاء وقت من المرح والسعادة، قرروا أن يتركوا ما بهم من هموم عند ذلك الشاطئ. فمنهم من تخلى عن كل ما قد هال نفسه من منصب وجاه، وتحرر من كل قيود الآدمية والأخلاق والذوقيات وعاد كالإنسان البدائي.

معظمهم (رجالًا ونساءً) حفاةٌ عراة لا يحميهم من أعين المتطفلين إلا شيئان: أولهما الماء الذي غطى معظم أجسادهم، والآخر هو أن هؤلاء المتطفلين مثلهم حفاة عراة أيضًا.

لا تحتاج أن تنصت إلي حديث ما يجري بين اثنين أو مجموعة.. إنك تجد الكلمات تخرج من أفواههم بقوة وتطرق مسامعك دون أن تأذن لها بالدخول، فتعرف كل شيء عن شخص لا تعرفه، لكن حكمة الخالق قد وقفت دون فضح أسرار خلقه، فقد كان صوت الماء وكأنه صرخات عنيفة تمنع المتطفلين من متابعة هذه الأحاديث.

هرج ومرج.. بحر واسع وأمواج عاتية.. كل إنسان قد شغل نفسه بنفسه، وزاغ بصره إلى ما لم تصغِ إليه أذنه.. تلفحه الشمس ولا يشعر بها، فيخيل للرائي أن الشمس قد فقدت حرارتها فلم تعد تشوي الوجوه ولا تصبغ الجلود.

من بين كل هؤلاء لم يلفت نظري سوى هما، رجل وامرأة، فجأة وجدتهما بجواري. شعرت بظلهما يحجب عني ضوء الشمس، وكأن الأرض قد أخرجتهما من بطنها.. تركت الكتاب الذي كنت أقرأ فيه ونظرت لهما.

لم يفعلا شيئًا غريبًا، مقارنة بالآخرين، فقط قاما بخلع بعض ما عليهما من ثياب بعد أن تركت المرأة ما بيدها، فقد كانت تحمل في يدها حقيبة كبيرة يبدو أنها فارغة، ولكن بعد أن خلعا ملابسهما، أصبحت الحقيبة وكأنها ستنفجر مما بها من ثياب.

المرأة محجبة ترتدي طرحة بيضاء، وقد خلعت عباءتها من عليها.. وجدتها ترتدي جلبابًا أبيض فضفاضًا، أما الرجل فقد كان يرتدي فانلة بيضاء و"شورت" قصيرًا أسود ونظارة سوداء.

شعرت في عين المرأة بخوف شديد على هذا الرجل، يبدو أنه زوجها.. على الرغم من نحافتها، إلا أني شعرت أنها تدب على الأرض بقوة وكأنها جبل يتحرك، وشعرت أنها تريد أن تشعر رجلها بذلك.

تريد أن تشعره بأنها قادرة على حماية نفسها وحمايته، ونجحت بالفعل في هذا، حتى إني أنا نفسي شعرت بأنها قادرة على حماية رجلها، ولكن كيف تحمي المرأة رجلها؟!! إنه رجل، قادر على حماية نفسه أولًا، ويجب أن يكون قادرًا على حماية من معه، وبالأخص امرأته.

دار بذهني هذا السؤال؛ مما دفعني إلى أن أدقق النظر في ذلك الرجل الذي سولت لي نفسي أنه ضعيف هزيل.. كانت المفاجأة أني

قد وجدته أشد منها قوة.. أو أن هذا هو ما أراد إثباته لها.

نحيف هو الآخر، حذر الحركات. خلع ساعته التي تبدو رخيصة، ثم كانت المفاجأة الأكبر أن خلع نظارته. دهشت.. بل صعقت! كفيف!!

إن كل حركاته كانت طبيعية بالرغم من الحذر الذي يشوبها.

لم تتركني المرأة كثيرًا في دهشتي، نظرت إليَّ وابتسمت ابتسامة ملائكية شعرت بعدها أنها قد اقتربت من قلبي جدًا، حتى شعرت للحظة أنها أختي، أمي، أو أقرب من ذلك.

بادلتها الابتسامة، فقربت مني الحقيبة وهي تحملها بيدها اليسرى، وقابضة باليد الأخرى على يد رجلها.

هو الآخر قابض على يدها بكلتا يديه، حتى إن الأصابع قد تشابكت بحيث يصعب للرائي أن يميز بين أصابع يده وأصابع يدها، وكأن هذا الخليط العجيب من الأصابع الملتحمة قد استحال إلى يد واحدة.

طلبت مني أن أراعي ما تركته لي حتى يخرجا من البحر، فوافقت, ولو طلبت مني ما هو أشق من ذلك لكنت وافقت دون تردد.

كنت أنوي الرحيل قبل أن يأتيا مباشرة، لكن الآن أنا مرتبط بشيء, ليس الحقيبة والنظارة التي وضعتها فوقها بجواري، لكنه شيء أكبر من هذا، مرتبط بسؤال يلح علي وأنتظر إجابته: ماذا سيفعلان في هذا البحر؟! كيف سيواجهان كل هذه الأمواج العاتية التي قد لفظت الكثير من الرجال الأشداء خارج البحر، وهرب آخرون منها، وتثاقل

آخرون إلى مقاعدهم خوفًا من تلك الحرب مع هذه الأمواج التي لم أرَ مثلها من قبل؟!!

اكتفى الجميع باللعب على الشاطئ وبناء القصور على الرمال، حتى إن البحر قد خلا من كل من كان فيه، لفظهم البحر إلى شاطئه حتى اكتظ بأكوام من اللحم قد ترك عليها البحر بصمته من قطرات المياه التي تنساب على أجسادهم وكأنها تخط على أجسادهم خطوطًا طولية تأخذهم من شعر الرأس إلى أخمص القدم، وكأن هذه الخطوط هي علامات على انتصار قوى الطبيعة على القوى البشرية.. انتصار الموج على الإنسان.

هدأ الجميع بعد أن اشتدت الرياح، فقد أثارت في أجسادهم رعشة عنيفة، وقد ساعد على هذا قطرات المياه التي قد اختلطت برمال الشاطئ الذهبية، واستقرت على جلودهم وكأنها تطرزها برداء قارس البرودة.

نظرت إلى البحر مرة أخرى، فوجدته قد خلا من كل شيء إلا من الأمواج العاتية، وتذكرت أمر الرجل والمرأة, أين ذهبا؟!!

كعادة المرأة لم تتركني أندهش كثيرًا، فقد وجدتها تخرج من بين الأمواج وهي تمسك بيد الرجل وهو يصارع الأمواج باليد الأخرى، في حركاتهما توتر غريب، كل منهما يريد أن يثبت للآخر أنه سعيد، لكن ما يبدو غير ذلك, فالأمواج أكبر منهما.

الرجل يريد أن يثبت لها أنه قادر على صد الأمواج، وأن عجزه لن يمنعه من حمايتها قبل حمايته، لكن هيهات!! إنه يصارع ما لا يراه،

وما هو أقوى منه.. بعد كل موجة يربت بيده الأخرى على كتفها وكأنه يقول لها: إني بخير، أو يريد الاطمئنان على أنها ما زالت صامدة.

المرأة تريد أن تشعره بأنها قادرة على حمايته، لكنها تخشى أن تشعره بعجزه، فتلطم الأمواج بيدها الأخرى وكأنها تريد أن تبعدها, ولكن إلى أين؟

كل هذا يدور في ذهنهما.

بعد كل موجة تمر، تسمع ضحكاتهما، لكنها تشبه الصراخ.. كل منهما يريد أن يشعر الآخر بسعادته، لكنه قلق، وكأن قلقهما من الموجة القادمة وما يمكن أن تحمله لهما من مصائب الدهر، قد أفقدهما شعورهما بالسعادة لمرور موجة بسلام.. الأمواج لا تنتهي، وكذلك قلقهما، وأيضًا شغفي لمعرفة ما سيحدث.

تقذف بهما الأمواج إلى الشاطئ بضع خطوات، فيعودان إلى مكانهما.. يقع هو مرة وهي تساعده فيقوم.. تقع هي مرة فيساعدها فتقوم.. يقع الاثنان مرة أخرى فيساعدهما دعائي لهما بالنجاة فيقومان.

تفُتُّ فيهم الأمواج ولا تبالي بما فعله بهما الدهر، تصارعهما ويصارعان للبقاء, تخور قواهما شيئًا فشيئًا.

كادت عيني تدمع من شدة تأثري بهما وخوفي عليهما، لكن يبدو أن السماء كانت أضعف مني فلم تتمالك نفسها.. بالفعل سقطت دمعتها في البحر، ليست دمعة، إنها قطرة دم، إنها الشمس قد قررت المغيب قبل أوانها، خافت أن تلفحهما بحرارتها فتزيد من

أعدائهما.. قررت الاستسلام والخضوع، وما كادت تلمس سطح الماء حتى تحولت الدنيا كلها إلى اللون الأحمر.. السماء.. المياه.. حتى الرمال قد غلب عليها اللون القرمزي القاتم، وما زالت الشمس تنطفئ وتتناقص شيئًا فشيئًا.

نفض الشاطئ ما فيه من أناس، أخذوا ما أخذوه من متعة وسعادة، أو لم يأخذوا، فقد آن وقت الرحيل وكأنه لم يشغل بالهم حال هذين الزوجين.

إنه الهدوء.. كل شيء لونه أحمر إلا شبحين في المياه تحول لونهما من الأبيض إلى الأسود، شبحين يتحركان ويتخبطان لينجوا مما هما فيه.

إنها نفس حركاتهما التي اعتدت عليها، الوقوع والوقوف والتماسك والانهيار والصمود ولطم المياه بالأيدي.. هو يلطم المياه بيد واحدة، وهي تلطم المياه بيد واحدة؛ لأن اليد الأخرى تهتم بشيء أكبر من اللطم.

لطم الموجة لن يضعفها، وحتى إمساك كل منهما بيد الآخر لن يضعفها، لكنه يقوّي داخلهما الرغبة في الحياة من أجل الآخر.. كل منهما يقع، لكنه يحافظ على ألّا تنفلت يده من يد الآخر منذ أن كانا على الرمال على البر، ولم تنفلت يد أحدهما من الآخر رغم كل ما لاقياه من قوى خارجية، وما فقداه من قوى داخلية، إلا أنهما لم يفلتا يديهما، فقد كان في ظنهما أن الصراع بيدين فقط، والأخريان مقبوضتان أفضل من الصراع بالأيادي الأربع.

تصارع هي ببصرها، وهو ببصيرته، حتى ابتدأ الكون يفقد لون الدم الذي لطخه وتحول إلى الأسود.

بدأ الظلام يزحف بخطواته الوئيدة وهما ما زالا يصارعان من أجل البقاء، لم أعد أراهما، لكني أشعر بهما، أراهما ببصيرتي وليس ببصري، لم تغب صورتهما عني رغم الظلام الحالك, إني حتى لا أرى كف يدي من شدة الظلام.

مرت ساعة أو أكثر على هذا الظلام، وأنا أنتظر أن يخرجا من المياه كي أرى ما قد أحدثته فيهما تلك الحرب الطاحنة، لكنهما لم يخرجا.. بدأت أشعر بالقلق، صورتهما لم تفارق أجفاني، لكني لا أراهما ولا أسمع حتى صوت ضحكاتهما.

أيمكن أن يكونا قد خرجا دون أن أشعر بهما أو أراهما؟ كيف؟ كيف يخرجان ويتركان الحقيبة التي بها الملا..؟

"الحقيبة"؟؟!!!

تذكرت الحقيبة.. بدأ قلبي يخفق بشدة، أريد أن أتأكد أنها ما زالت موجودة، لكن خوفي من النتيجة كان يرعبني.. في النهاية تملكتني الشجاعة ونظرت بجواري.. كانت الصدمة الكبرى التي شعرت معها أن قلبي قد توقف لبضع لحظات قبل أن يستأنف الخفقان مرة أخرى، ولكنه أشد، أنها لم تكن بجواري، لم أجد لها أدنى أثر.. لقد كانت هنا.. أين ذهبت؟!

لا، لم تكن هنا منذ البداية.. لو كانت هنا لتركت أثرًا في الرمال، لكن حتى الأثر لم تتركه، لقد اكتفت بترك الأثر في نفسي فقط.

لم توجد حقيبة أصلًا، وبناء عليه لم يكن هناك رجل ولا امرأة.. كل هذا كان صنع خيالي.. ما أبدعه من صانع!! حقيقة صعبة مرة، لقد عشت مع هذا الخيال ساعات!!

صحيح، مَن المجنونة التي تأخذ كفيفًا إلى البحر من أجل السعادة له؟

من المجنونة التي تصارع من أجل زوجها الكفيف كل هذا؟

من المجنونة التي تترك حقيبة الملابس لرجل لا تعرفه وترحل بدونها؟

من المجنونة التي تترك صنع القصور على رمال الشاطئ وتذهب لتبني قلاعًا في وسط البحر؟!

رغم شدة دهشتي، إلا أني لم أجد سوى هذا الحل الذي قد يريحني من التفكير في مصيرهما.

رغم كل ما بداخلي من مشاعر حركها ذلك الخاطر الذي لازمني ساعات، إلا أني قد ضحكت ضحكة ساخرة خرجت من أعماق أعماقي.. كيف أعيش في وهم كل هذه الساعات؟!

لملمت أشيائي وقررت الرحيل رغم شعوري أن شيئًا ما يربطني ويشدني إلى هذا المكان، إلا أني قد صارعت نفسي واستدرت، وضحكت ضحكة أخرى لما رأيت أضواء المدينة الساهرة التي لا تشعر بما أعانيه.. إنها تبدو بعيدة جدًّا؛ لذلك يلزم السير طويلًا على الرمال.

حملت مقعدي وكتابي، وتركت الشمسية مغروسة في الرمال، كأنها شاهد على قبر هذا الخاطر الذي لاح لي، وبدأت الرحلة من الشاطئ إلى رصيف المدينة.. رحلة طويلة. وبينما أنا أعاني من الرمال التي أشعر أنها تود التهام قدمي ودفنها بداخلها، وقفت.

مددت يدي أتحسس هذا الشيء الذي غاص في الرمال بعد أن دهسته إحدى خطواتي، حتى أمسكت به.

لم يساعدني الظلام في اكتشاف ماهية هذا الشيء، ولم تشعر أناملي بأبعاده نتيجة لتحطم جزء كبير منه تحت قدمي، فقررت أن أحتفظ به بضع دقائق حتى أصل إلى النور، نور المدينة، لأرى ما هذا الذي أمسك به.

مشيت ومشيت، واقتربت المدينة أكثر وأكثر حتى أصبح في إمكاني أن أرى ما بيدي.. فتحت يدي عما كانت قابضة عليه، وكانت الصدمة.. أحالتني إلى صنم من هولها.. أبهم وجهي وتاهت الخطى من قدمي.

لم أشعر بنفسي إلا وأنا واقف على رصيف المدينة، والناس تلتهمني بأعينها لا تدري من هذا الواجم الذي قد تمخضت عنه طيات الليل.. لم يدروا أي مصيبة قد حلَّت علي! لقد رأيته.. رأيت ذلك الشيء.. إنه نظارة سوداء، نفس النظارة التي كان يرتديها الرجل الكفيف!!

استدرت إلى البحر، لكني وجدته بعيدًا جدًّا، ووجدت أن المدينة أقرب إليَّ منه، فقررت أن أكمل الطريق الذي قد بدأته، ومشيت.

مشيت حتى ابتلعتني أضواء المدينة كما ابتلعهما ظلام الليل، ولم يبقَ لي من تلك الذكرى سوى حطام النظارة السوداء التي ما زلت أحتفظ بها حتى الآن.

***

رحمة

يمكن أن نكون أقوياء بالمعرفة
ولكننا لا نصبح بشرًا إلا بالرحمة
«طاغور»

كيف استطاع ذلك الطفل، ابن الأعوام الخمسة أن يفجر في رأسي ونفسي كل هذا الكم من الأفكار والشجون؟!

أطلق سراح ملايين الأفاعي والثعابين تتلاعب بي.. كيف أرسله لي القدر في هدوء ليبعث إلي برسالته المبتورة هذه.

كأنه غراب قابيل، مع الفارق.. فالغراب شؤم الهيئة والصوت، أما ذلك الطفل فكان آية في الجمال.

عيناه خضراوان مكحلتان بكحل طبيعي لا زيف فيه.. شعره ليس ناعمًا، لكنه كومة من الخواتم الذهبية المتشابكة والمتداخلة في زحام ذكّرنى بالكنز الذي يجوب من أجله القراصنة أعالي البحار وأعماق المحيطات.. إنها متجمعة على رأسه في عنفوان، كأن رأسه قد ناء بها فلفظها من داخله زخَّاتٍ زخاتٍ لتعلق جذوره حلاوة روح، وتتشابك أغصانه شدًّا للأزر.

أنفه وفمه دقيقان لا تشعر ببروزهما عن عظام وجهه، فهما ينسابان في نعومة بين غرَّته الساطعة وذقنه الصغير.. جسمه ضئيل هزيل نحيف كأنه لوحة فنية ثنائية الأبعاد.

يختلف أيضًا عن غراب قابيل في مكنون رسالته، فرسالة الغراب رسالة موت ودفن، أما هذا فقد جاء برسالة إحياء وبعث ونشور

لملايين الأسئلة الصاخبة في رأسي.

تلا في نعومة تعويذة البعث، فأحيَى بها ما كنت قد دفنته بيدي، أو أُجبِرت على دفنه، وظننت أن زحام الحياة قد ينسينيه، حتى اقترب مني بكل براءة ليسألني:

- هل هذا عزاء؟!!

مشيرًا ببنانه الدقيق إلى بوابة مسجد عمر مكرم القائم خلفي.

التفتُّ إلي حيث أشار، لأجد رجالًا ينسلُّون من البوابة الرئيسية للمسجد في حلل سوداء، تبدو على هيئاتهم الهيبة والثراء.. منهم من يدخن غليونه في تركيز، ومنهم من انشغل بالحديث إلي الآخر في أصوات جشاءَ واثقة، زائغًا ببصره إلى الدخان الخارج من سيجاره الفخم الباهظ الثمن، الذي يلوح به راسمًا على الكون علامات كِبْر استعراضية.

يخرج من البوابة الخلفية للمسجد نساء يرتدين الأسود الأنيق، الكاشف عن سوق لامعة بيضاء، وقوام ممشوق، ونهود تتلصص من أطواق الفساتين، بعضها متستر خلف أوشحة سوداء شفافة، وأخرى جريئة فجة.

رءوسهن ناظرة لأعلى في كبر، ورقابهن معلقة في أجسادهن بأطواق من الذهب والألماس، وكذلك علقت أكفهم بأذرعتهم العارية أيضًا.. صوت أقدامهن بكعوبهن الحادة تخرق سكون الكون في ترقب، وتشيع الثقة في نفوس صاحباتها.

كان المشهد أشبه بنهاية عرس، وليس ختمة عزاء، لولا خروجهم من ذلك المسجد ذي المآذن الشامخة المناجية ربها في السماء.

أجبته وأنا ما زلت زائغ البصر إليهم في تفحص:

- نعم، يبدو كذلك.

انسلخ مني وهرول إليهم.. وجدت ملامح وجهه تتبدل من البراءة والبؤس إلى التوسل والاستجداء.

تناقلته عيون، وأشاحت عنه عيون في تجاهل مصطنع، كأنه نكرة.

ركلته أيادٍ بعيدًا، خوفًا من اتساخ الحلل والفساتين، أو خوفًا على ما يُحطنَ به أيديهن من مصاغ، وما تحويه حافظاتهم المكتنزة.

بعضهم أخذتهم به شفقة مصطنعة، وأخرجوا من جيوبهم أوراقًا نقدية وأعطوه.. تهادى إلى مسامعى صوت ذلك الرجل وهو يقول له في صورة أقرب إلى التهكم والتحذير منها إلى النصح:

- خذ.. ولكن لا تفعلها مرة أخرى.

قالها مبتسمًا ابتسامة صفراء كأنه يريح بها ضميره، حتى لا تأخذه به شفقة، وظنًّا منه في عبث ساذج أن بها سينصلح حال الطفل.

عاد إليَّ الطفل معتصرًا بكفيه كومة الأوراق النقدية في ظفر لاهث وقال لي:

- عدّهم لي.

مددت له يدي، فأعطاني النقود في ثقة ودون خوف.. سألني في شغف:

- كم بقي لى حتى يصبح معي عشرة جنيهات؟

أخذت أهذب الأوراق، أخلصها في صعوبة من انكماشها الخائف من قبضته، ثم عددتها فوجدتها سبعة جنيهات.

قلت له:

- باقٍ ثلاثة جنيهات.. ماذا ستفعل بها؟

خطف النقود من يدي في فرح ورد مقتضبًا في استهزاء من سذاجتي

- سأكملهم عشرة!!

أخذ يتراقص حولي ملوحًا بالأوراق المستسلمة في يده في فرح وسكر.. فجأة توقف وشرد ببصره بعيدًا، بعيدًا جدًّا، ثم استدار لي ونظر في عيني زائغًا وقال:

- ما معنى الموت؟ يعني عندما نموت، ندفن في الأرض، أم نصعد إلى السماء؟!

تسمرت مكاني.. كيف سأشرح له هذه العملية المعقدة.. أنا نفسي لا أعرف ما يحدث عندما نموت، فلم أمت من قبل!!

قلت له:

- الإنسان يتكون من شيئين: الجسم والروح. عندما نموت تصعد الروح إلى الله، ويدفن الجسم في الأرض.

سأل وشغف المعرفة يكاد يخلع مقلتيه:

- تصعد إلى الله فين؟

رددت:

- فى السماء، ومنها إلى النار أو الجنة.

- وهل سأذهب إلى النار أم إلى الجنة؟

- إذا كنت سيئًا فسوف تذهب إلى النار، وإن كنت طيبًا فسوف تذهب إلى الجنة.

- وهل أنا سيئ؟!!

نظرت إلى عينيه فوجدتهما قد أعيتهما الحيرة.. قلت له وأنا أجاهد للاختباء من نظرته تلك إليّ، حتى لا يرى مخايل الكذب على وجهى:

- لا.

يبدو أننى سوف أظل هكذا طوال حياتي لا أتقن الكذب، حتى هذا الطفل قد كشف كذبي بسهولة، لكن ثقته بي قد زادت على حيرته حيرة.

قال في يأس عنيد:

- احلف!

لم أستطع أن أحلف وأنا لا أعرف الإجابة حتى.. راوغته هربًا من الحلف:

- من قال لك إنك سيئ؟

- كل الناس!

- لم؟

- لأنني أشحت.

- ولم تشحت؟!!

سكت وعادت عيناه للنظر بعيدًا عني في حزن.

جلدت نفسي ندمًا على ما انخرط فيه سياق الحديث حتى جرحته بسؤالي القمة في السذاجة والأنانية، فقد هربت من الحلف بجرح مشاعره.

أردت أن أداوي جرحه الذي لم أكن أقصده، لكني لم أجد له دواء، فجراح النفوس لا تندمل سريعًا.

سألته قاصدًا تغيير الموضوع:

- ما اسمك؟

رد:

- رحمة.

تراءت لي سيارة صديقي الذي كنت أنتظره وهي تدلف من أول الشارع منعطفة تجاهي.

وددت دومًا أن يلتزم صديقي بمواعيده، وكنت دائم التعنيف له على عدم احترام مواعيده، خاصة أن أكثر ما يثير أعصابي وحنقي في هذه الدنيا هو الانتظار، إلا أنني، ولأول مرة، كنت أتمنى أن يطول انتظاري له أكثر وأكثر.. تمنيت ألا يأتي، فهناك ما خفف عني وطأة الزمن.. ارتبطت بهذا الطفل حتى وددت أن أقضي بقية الليل معه.

ركبت مع صديقي، وابتعدت بنا السيارة عن رحمة، ورأيته من خلف ذلك الحاجز الزجاجي المترب جالسًا على الرصيف يحاول عدَّ النقود التي معه وهو في قمة السعادة.

فجأة تذكَّرَني وتذكر أنه قد لا يراني مرة أخرى، فنظر إلى السيارة ملوحًا بكفه الصغيرة، فلوحت له من الزجاج الخلفي.

رأيت الفرحة تقفز إلى عينيه عندما استشعر أن اهتمامي به لا يقل عن اهتمامه بي.. كأنه كان يلوح للسيارة في يأس أن أبادله أو أكترث له.

تمنيت لو أن بإمكاني النزول من السيارة لآخذه بين أحضاني، ولكني استسلمت للمسافات التي تباعد بيننا شيئًا فشيئًا، حتى أخذ جسده يتضاءل أكثر فأكثر، حتى اختفى من الزجاج الخلفي.

سألني صديقي في تهكم

- مين الواد ده؟ صاحبك؟!!

وأخذ يقهقه في هيستيريا تزلزل هيكل السيارة.. نظرت له في حنق وجد:

- نعم صديقي.

اندهش صديقي من ردة فعلي، فرسم الجدية على ملامحه في أسلوب مسرحي رخيص:

- اسمه إيه؟

جاوبته وعيناي تنهم من الرصيف الذي راح يزحف على يميني من خلف الزجاج:

- رحمة.

لم أنتظر رد فعل صديقي، ولا حتى نظرت له طول الطريق.. لم يشغل بالي إلا رحمة.

قررت أن أعود إلى نفس المكان في اليوم التالي وأجلس أنا وهو في مكان.. قررت أن ألبي له كل طلباته، وآتي له بكل ما ينقصه ليكون طفلًا طبيعيًّا لا يحمل همَّ الصواب والخطأ، ولا الحياة والموت، ولا حتى الجنة والنار.

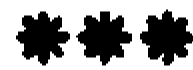
فعلًا، ذهبت في اليوم التالي إلى نفس المكان وفي نفس الميعاد.

نفسها الحلل السوداء تخرج من المسجد, نفس النساء بنفس النهود المشرئبة والإيقاع الخارق للكون بأحذيتهم، نفس المسجد والمآذن، نفس كل شيء إلا هو.

انتظرته طويلًا، لكنه لم يأتِ.. لم أره ثانية.. كأنه لم يعد موجودًا إلا في داخلي..

انتهت الرسالة.. أدى مهمته المكلف بها واختفى إلى حيث أتى.

قد يكون أكمل عشرة جنيهات واكتفى.. قد يكون حُمِّل برسالة أخرى لينجزها.. قد تكون رسالته الأخرى فيها صحوة لشخص آخر مثلما فعل معي.. أو يكون فيها شفاء لأيوب.



سوبرمانة

أول العشق عناء، وأوسطه سقم، وآخره قتل ! !

«ابن الفارض»

هي 1

في كل يوم أمضيه في هذه القاهرة يزداد اندهاشي، وأزداد ارتطامًا بأناس تتلقفني، لم أكن أتخيل أن أصادفهم أو أصادقهم.

في كل يوم أنبهر بشخص لأنه كذا، وبعدها أصادف شخصًا كذا أكثر منه.. أعتقد أنه إذا استمر بي الحال هكذا فسوف أصادف يومًا «سوبر مان».. نعم إنه لم يعد خيالًا بعيد المنال كما كنت أحسبه وأنا في الإسكندرية.

هو موجود حتمًا؛ بدليل أنني صادفت «سوبر مانة» بالفعل.. صعب جدًّا السيطرة على شخصية كهذه.. أشعر معها كأنني مروض أسود!

أحمل الكرابيج بيدي وطوق النار، وأجعل من نظرات الثقة المفتعلة، والابتسامة الساخرة المتراقصة على شفتي درعًا يخفي كل ارتعادات الضعف والتهاوي أمامها.

فاتحًا ذراعي أطوف حول ذلك الوحش الثائر الرابض أمامي في حركات استعراضية متراقصة، بين الإقدام والإدبار والكر والفر، ولا يخلو المشهد من هبشات ثائرة تائهة ومعترضة منه، لكنني ما زلت مسيطرًا على جماحه حتى الآن.

أتراجع حينًا وأُقْدِم حينًا في نعومة الثعابين، ولا مانع من أن أهجم أيضًا إذا اقتضى الأمر، فارضًا سيطرتي، ومحافظًا على وطأة العلاقة.

إنني ما زلت في مرحلة الترقب وجسِّ النبض.. ما زال الوحش بعيدًا عن طوقي الناري.. ما زال عنيدًا زائغًا ببصره عنى، إلا من اختلاسات أقتنصها في غفلة منه.

وما زلت أحاول.

هي 2

علامة استفهام كبيرة تتراقص أمامي.. حتى الآن لم أستطع أن أضعها في جملة مفيدة.. فشلت كل محاولاتي في تغييرها.

إنها «كارمن» في كل شيء.. ذلك المخلوق الذي ولد حرًّا طليقًا كأنه روحٌ فقط بدون جسد.

«كارمن» في الانطلاق و الحرية .. «كارمن» في العناد والمكابرة.. «كارمن» في عزة نفسها وثقتها المتناهية في قدراتها.

إنها «كارمن» في كونها البطلة غير المعصومة من الخطأ، بل هي الخطأ ذاته.. «كارمن» حتى في عطرها الذي يحوي عبقًا وعمقًا كأنه رائحة مطاحن البن البرازيلي حين كان روادها من الجريج والإنجليز والفرنسيين.. عطر يحمل تاريخًا أنتشي به حتى بعد الفراق.. عطر يُذكرني برائحة بيوت القدس في وصف «تميم البرغوثي».

«والله رائحة لها لغة ستدركها إذا أصغيت»!

إنها «كارمن» في عدم قدرة «دون خوسيه» على كبح جماحها، فلم يستطع السيطرة عليها ولا على نفسه، فذاب عشقًا.

إنها «كارمن» حين توزع حبها على الجميع في عدل سماوي، فلا معزة لأحد على أحد، ولا بغض لأحد عن أحد.. الكل في محرابها سواسية..

تتحرك كأنها راقصة غجرية في حانة، تسكر الجميع بغير خمر، وتُفيقهم بصدِّها وثباتها كأنها صنم!

تتدلل كأنها تطالب بحقها.. يرسو بجفنيها جنون الفَرس حين يتأهب للركض في سباق واثقًا من فوزه، ويفوز.

إنها «كارمن» في رفضها للقيود بشتى صورها، حتى ولو كانت سوارًا ماسيًّا.

تعامل الجميع كأنهم آخرون، أو كأنهم غيرهم. إنها «كارمن» حين تأخذ نفسًا عميقًا تستمد منه قوتها وثباتها.. تتحرك وتتفاعل وتضحك وتدمع كأن هناك آلاف الكاميرات تراقبها وتتربص بها، فتمنحها ثقة مفتعلة على ثقتها.

هكذا تعيش حياتها «تحت الأضواء».. وهكذا بهرتني وأعمتني.

هي 3

عندما يجتمع الصواب والخطأ في لحظة شفق على صوت موج البحر الثائر، وتراهما خيالين يصعب التمييز بينهما.

عندما تجتمع القوة باللين، ويجتمع الضعف بالطغيان.

كانت هي نتاج لحن معزوف على ذلك الوتر الفاصل عند التقاء السماء بالأرض..

خط يصل - بقدر ما يفصل- بين كل شيء ونقيضه، تتمنى لو تمر عليه بأناملك لتمحوه.

أذهلني ذكاؤها البراق، وغباؤها العنيد في التعامل معي.

إصرار فظيع على تبرير وتفسير الخطأ المطلق والبيِّن، مع التشكيك في حقيقة الصواب بكل دلالاته الملموسة.

طفلة بريئة صافية، أم شابة يافعة صارخة الأنوثة؟ إنها الاثنان معًا.. مزيج أخاذ بين ذلك وذاك.

عنيدة كالصخرة, طيعة كمصهور البراكين، تتشكل وتتلون كما يحلو لها.. أخافتنى جرأتها كما استفزني خجلها.. خليط.. تركيبة نادرة الوجود.

حدثتها عن عينيها قائلًا: «من غير كحل أروع كثيرًا».. تمامًا كما

قلت لمن قبلها!

شبهتها بـ «سوبر مانة»، تمامًا كما شبهت من قبلها.

كل ما قلته لها قلته لغيرها، ولكنها ليست كغيرها.

كأنني كنت ذلك الطفل الذي يتعلم الكلام مع والديه ليتحدث مع الغرباء بطلاقة.. كأنني كنت أتدرب مع الأخريات على الكلام الذي سوف أقوله لها.

أماتتنى حياتها.. أحيتني في أحضانها.

قربتني من الجنة كما جننتني من القرب!

هي 4

عندما يأخذنا العشق معه لآخر الدنيا، يعمينا.. يدمينا.. يصدمنا.. يحرقنا.. يؤرقنا.. عشق كما لم أتذوقه من قبل.

عشق يحلل الحرام ويحلل الحلال.

عشق يغيرني.. عشق بين بين.. بين التحليق وبين الدفن.

عشق يتحكم في حياتي، وفي خلجاتي.. في خيالاتي.

عشق جاءني لأول مرة دون أن أطلبه.

مرت أزمنة عليَّ دون أن أعبأ بأحد أو أهتم.

كنت أفتخر أنني لا أحزن لشيء.. الآن جاءت من أهتم بها وأكترث لأشيائها ولتفاصيلها الصغيرة قبل الكبيرة، ولكن دون تقدير منها، وذلك أسعدني؛ لأنه غيرني.

أسعدني لأنه أحزنني، فالحياة بدون حزن موت سعيد.

وأنا محتاج منذ عصور لامرأة تجعلني أحزن
لامرأة أبكي فوق ذراعيها مثل العصفور

نعم بكيت.. بكيت لأول مرة على فراق والدي بين أحضانها.. وبكيت مرة أخرى منها.

أبكتني وأنا لم تُبْكني امرأة قط.. بكيت عليها وبكيت لها وبكيت منها.

هي لحظات استجمعت فيها ندمي على كل مواقفي التي كان يجب أن أبكي فيها ولم أفعل، وأفرغتها بين ذراعيها.

كان جبني يمنعني من البكاء، والآن أنا أشجع الناس بعشقي لها.

فليس أشجع الناس أيأسهم، ولكن أكثرهم قدرة على البكاء.

هي 5

شيء غريب يتبدل فيها.

كان حدسي صائبًا، أنها قد اتخذت قرارًا بالفراق، وأن كل محاولاتي لاسترجاعها مجرد مهاترات وتضييع للوقت والجهد. رغم كل هذا لم أبخل لآخر لحظة بوقت ولا بجهد، ولا أخجل أن أقولها صراحة: ولا كرامة! فقد كنت موقنًا خطأً ألّا كرامة بين المحبين.

لكن مع كل تلاقٍ خاطف بين عيني وعينها، كان يحبو ذلك الحدس نحو اليقين.

إننى أمام شخص لا أعرفه.

تبدلت وتبلدت.

لم تعد ذلك الطائر الحاني الذي كان يفرغ بين أحضاني كل ويلات العمر وآلام السنين.

لم تعد تسكن عيونَها تلك النظرةُ التي ترعش المُقَل طربًا حين تلقاني.

لم يعد يعنيها فراقي، لم تعد خاصتي ولا ملكي.

استحالت أمامي إلى جماد لا مشاعر فيه ولا إحساس، ولا حتى ذكريات.

لم تعد تراني ذلك «البشع»، تلك الكلمة التى تعني شخصًا لا مثيل له في قاموسها المحدود.

كذلك نعتتني في بداية الطريق، أما الآن فقد وهن ذلك المعنى في ملامحها وتحول إلى العادي.. العادي جدًّا.

لم أكن أتخيل يومًا أن تكون النهاية هي محاكمة الحكم فيها معروف سلفًا.. لم أكن أتحدث بقدر ما كنت أرقب المشهد، نعم كانت لي الحلم متجسدًا.

الآن هي شيء لم أصادفه حتى في كوابيسي.

أخطأت حين ظننت أن بها سوف تتلون أيامي.. كنت أراها كما يرى النقشبندي الأشخاص من حوله في مقدمة مسلسل «حديث الصباح والمساء»، ملائكة تحوم حوله هائمة لا حية ولا ميتة، لا حلمًا ولا حقيقة.. موجودين وجود العدم.

لم أندم، ولن أندم على إحساس أعطيتها إياه.. لم ولن أندم على وقتي الذي قضيته معها؛ فكما أعطيتها أخذت منها، وكما أسعدتها سعدت معها وبها.

تمنيت أن أسأل أهلها وأصدقاءها: «أين هي؟ لماذا لم تأتِ معكم؟» وتمنيت أن يجيبوا، لكن لا أنا سألت ولا هم أجابوا.

الآن أرى نفس الخط الأخضر المتقطع لجهاز النبض الزاحفة أسلاكه على جسد أبي وهو في رمقه الأخير، يخبو رويدًا رويدًا.

أنظر إليه هذه المرة ببلادة يائسة، فأنا أعرفه خطًّا ليس له رادع،

فهو يعرف طريقه جيدًا إلى السكون.

نعم لقد ماتت بالنسبة لي وفارقت حياتي.. تلك التي أمامي ليست إلا امرأة تشبهها فقط.

حتى ملامحها لم تتطابق معها، فالحب يُجمِّلنا.. الآن ما أقبح ملامحها!!

هي 6

سألتها يومًا: ما عيبك؟

ردت محذرةً: أبيع بسهولة. وأنت؟

رددت متوعدًا: لا أعطي فرصة ثانية، فالحياة عندي فرصة أولى فقط.

حذرتْ وفعلتْ، وتوعدتُ فأوفيتُ.

عندما تغلب عيوبنا الصغيرة مزايانا الكبيرة تتجلى سطوة اللعب.. لعبة لا قواعد لها ولا قوانين.

عن لعبة اللقاء والفراق أتحدث.

افترقنا بلا رجعة وبلا ألم.

لا هي بلادة مشاعر، ولا هي قوة إيمان، فأنا أعلى كثيرًا من أن تتبلد مشاعري، وأدنى كثيرًا من أن أكون قديسًا لهذه الدرجة، ولكنه الرضا، فكما أعطيتها أخذتُ منها، وكما أسعدتها سعدت بها، فالحب ليس إلا شعورًا من طرف واحد، أنت فيه الفاعل والمفعول به.

أنت تعطي لأنك تحب فتتلذذ بعطائك، قمة نشوتك في الحب أن تجد نفسك تذوب عشقًا.. كل ما هو مطلوب من الطرف الآخر ليس إلا السماح لك بالفناء من أجله.

هي سمحت لي، وأنا تلذذت بكل لحظة عشق عشتها.

«من يحب لا يعرف الكره».

مقولة خاطئة؛ فالحب كالكره, حالة نحملهما معًا نفَسًا لقلوبنا الحية. الأصدق أن من لا يعرف الحب هو من لا يعرف الكره.

قلبٌ لا حب فيه ولا كره، قلب ميت.. أما القلوب الحية فتحمل الحب شهيقًا كما تحمل الكره زفيرًا.. فكل متناقضين يجمعهما شيء مشترك، فالأبيض والأسود لون.. الليل والنهار وقت.. الشرق والغرب اتجاه.. والحب والكره قلب.. فكلما كان أحد المتناقضين قاسيًا، اقترن به الآخر قاسيًا أيضًا.. فلا قلب أجاد الحب مطلقًا صادقًا إلا وأجاد الكره مطلقًا وصادقًا.

انظر حولك وفتش في خبايا ذاكرتك «محايدًا»، تجد أن أكثر من تكرههم اليوم هم من أحببتهم سلفًا، فحاول ألَّا تكون قاسيًا في أحدهما حتى لا تكون قاسيًا في الآخر.

أحبِبْ على حرف خوفًا من أن تكره، واكره على حرفٍ، خوفًا من أن تحب, تَسْلَم.

***

بهلوان الملك

أقصى درجات الحرية . . ألَّا تملك شيئًا ، ولا يملكك شيء .

«ابن عربي»

ليس غريبًا هذا الذي يحدث في القصر العظيم ذي الأعمدة الرخامية، والقبة المطعمة بالماس والفضة، والبهو العاجي الممدود في تيه إلى تلك الدرجات المرمرية المتلوية في تصعدها، ونعومتها كالأفاعي تخرج من سلال الحواة.

فجأةً وبدون سابق إنذار، اعتاد أهل القصر من خدم وحشم وحاشية وحرس، على صرخة الملك «داني» معلنة تعكر مزاجه وسوء حالته النفسية، طالبًا علاجه الفوري.

الملك «داني» هو الجبروت يمشي على قدمين.

ضاقت به رعيته، لشدة قسوته وتسلطه، حتى قيل عنه إنه في صغره أصيب بمرض نادر، حيث تحول قلبه إلى صوَّان، وفي رواية أخرى أن الشياطين قد هاجمته في إحدى الليالي الكالحة، محاولة أن تمسه، فكلما اقترب منه أحدهم احترق وتحول كومة من الرماد، ولما رأوا ما بقلبه من قسوة وقوة وشر عاهدوه أن يعاونوه في حكمه، وأن يمدوا له في عمره قدر استطاعتهم.. وكان. وفي أسطورة أخرى أنه في صغره تاه في الغابة، وتم العثور عليه وسط كومة من الأشبال الصغيرة يرضع من ضرع الأم كأنه واحد منهم، وأن لبن الأُسود هو الذي زرع تلك القسوة بداخله.

كثرت الأساطير التي خلقت لإيجاد مبرر لهذا الكم الهائل من القسوة، التي يصعب أن يحويها قلب بشري على وجه الأرض إلا قلبه.

ازداد طغيان الملك «داني» يومًا بعد يوم في حكمه، كما ازداد كره رعيته له، ولكن أين المفر؟! لا يوجد خلاص من ملك غاشم برعية راضخة له.

لقد رضوا به ملكًا عليهم، أو لم يرضوا، فهو أكبر أبناء الملك «هاشم»، ومن الطبيعي أن يرث الحكم بعد أبيه، ولكي تستمر حياة الرعية أقنعوا أنفسهم أن الملك «داني» قد تربى أمام أعينهم، وسرى بينهم قول أن من يعرفونه خير ممن لا يعرفونه، وأرضى البعض الآخر نفسه، اقتناعًا أو زيفًا، بأنه خير من أنجبت أرضهم؛ فهو ابن الملك، ومن أحسن ممن تربى في القصور الملكية خلقًا؟!

رغم البؤس ورغم الشقاء الذي ارتسم على ملامحهم، فإن صبغة الرضا ما زالت تعرف طريقها على وجوههم صغارًا وشبابًا وكهولا.. إنها الحياة ستستمر، رضينا أم أبينا، فرضوا.

جرت الأيام عابثة بهم، وبملكهم الذي زاد في الترف والاستهانة بكل مآسيهم، جاعلًا من رعيته تماثيل يزين بها مملكته، ليس فقط مملكته بل حياته ومزاجه أيضًا؛ ولذلك لزم وجود من يروِّح عنه، ويزيل عن حياته ما قد يعلق بها من الضيق، أو ما قد يعكر عليه صفو حياته ورغدها؛ ولذلك لزم وجود بهلوان, ذلك العلاج الفوري الوحيد القادر على إضحاك الملك وتصفية مزاجه..

رغم أن بهلوان ما إن يفرغ من أداء مهمته على أكمل وجه ويترك

القصر، وسط قهقهات الملك وترنحاته، يغبر وجهه ويبكي على منحه ما لا يملك لمن لا يستحق..

يمنح البهجة والسعادة للملك وحاشيته، وهو أحوج إلى تلك الضحكات أو حتى البسمات منهم.

كثيرًا ما كانت الهواجس وأحلام اليقظة تأخذان ببهلوان لتقذف به إلى المستحيل، حيث يكون هو الملك، والملك بهلوانه، ولكن يفيق على صوت حواء، زوجته وأم ولديه، وقد امتقع وجهها، رغم اعتيادها لهذه الزيارة من الحرس الملكي يأمرونه بالحضور للترويح عن نفس جلالته.

تلطمه بالحقيقة القاسية أن لكل منهما مقامه، أن الملك ملك، وأن بهلوان بهلوان.

في أفخم القصور على وجه الأرض يسكن الملك، وفي حجرة خشبية على أطراف البلدة، يتسلل إليها العطب، يسكن بهلوان وحواء وولداهما.. رضوا بها ولم ترضَ هي بهم، ففرضت عليهم أن يعيشوا مع قليل من الفئران التي تشاطرهم قوت يومهم خلسة، وبعض الحشرات التي تقتات من مص دمائهم، وألَّا يستخدما لإنارتها إلا فتيلًا متهالكًا للمبة جاز متوارثة بالية.. حتى جدرانها القريبة من بعض كأنها تحتضنهم، كانت تعتصرهم برطوبتها التي تنشع في الأركان.

كانت تلك الحجرة حالها كحال منازل أهل البلدة جميعًا، متناثرة حول القصر في عشوائية منتظمة كالقبور، مظلمة دائمًا رغم ما

تحتويه من قلوب يضيئها الإيمان والرضا بالحال.. قلوب شاكرة للرب، مقبِّلة لليد مهما كانت عسرة الحال.

أما هذا اليوم فهو يوم مشئوم على تلك المملكة، فالملك استيقظ من نومه متعكر المزاج ويحتاج إلى بهلوان.. لم يجرؤ أحد من الخدم على إخباره بما حدث لبهلوان فجرًا، وكيف يتسنى لمثله، من يسكن قصرًا، أن يعرف ما يحدث خارج أسواره؟! لقد توفي بهلوان فجرًا.

عرف كل قاطني القبور حول القصر ما حدث، ومنهم الخدم والحرس، ما جرى لبهلوان، فدمعت قلوبهم قبل عيونهم، لكن صمتت ألسنتهم عن البوح بما جرى، داخل القصر؛ خشية أن يعرف الملك فيستشيط غضبًا على غضبه، ويبطش بالبلدة ومن فيها.

يعرفون جميعًا أن الملك لن يحزن على فراق بهلوان، لكنه سيحزن حتمًا على ضحكته التي ستُدفن معه ويواريها التراب، كما سيواري جثمان بهلوان.

صرخ الملك "ائتوني ببهلوان!"، فهرع الحرس في تخبط اليائسين إلى مسكن بهلوان، فوجدوه ملقًى على الأرض وقد غرق وجهه في دموع حواء والولدين.. كانت عينا حواء قد قرحت من كثرة البكاء، فهي حتى لا تملك المال اللازم لدفن جثمان بهلوان.

وقف الحرس يعتصرهم الحزن على فقد بهلوان، وعلى حال حواء والولدين.. حواء التي كانت أجمل أهل البلدة، والتي كانت تعمل خياطة عند حريم الملك، والتي عاشت مع بهلوان أجمل قصة حب تحاكت عنها البلدة والبلاد المجاورة، حتى تكللت بالزواج ثم بالولدين.

عاش بهلوان وحواء حياة قاسية، إلا من البسمة التي كانت ترتسم على وجيهما، والحمد الذي يفوح من أفواههما.

تقاسمت حواء بؤس الحياة مع بهلوان بحب وتفانٍ يفوق ما قاسته ناعسة مع أيوب.. حاكت له من فضلات وقصاصات الأقمشة الملكية الحريرية ثوبًا يرتديه كلما استدعاه الملك، فحوى ذلك الثوب كل ألوان البهجة والفرح؛ لتسهل عليه مهمته في إسعاد الملك، وليكون حسن المظهر ومضحكًا أيضًا، وليخفي بها رثَّ حاله الواضح في ثيابه البالية المهلهلة.

التفتت حواء إلى الحرس الذين قد شعرت بهم فجأة.. رأتهم أشباحًا، من خلفهم ضوء النهار، ومن أمامهم تزحف ظلال تلتهمهم هي والولدين ورفات زوجها.

عرفت المطلوب، وعرفت أنه المستحيل، فقد مات من في يده إنقاذ الملك من الهم والغم، وأيضًا إنقاذ البلدة كلها من بطشه إذا لم يجد مطلبه.. نظرت إليهم شاحبة كأنها هي التي ماتت.. رق لحالها قلوب الحرس، ولكن لا حل لديهم جميعًا، فهم أعجز منها على رد القضاء.. لا بد من مثول بهلوان بين يدي الملك، لا محالة..

توقف المشهد بينهما.. صمتت الوجوه، وثبتت العيون في توسل لإيجاد حل لحالهم جميعًا، وجمدت الدموع في المقل.

حواء تنظر إلى الحرس في توسل، لتجد ما يكفي من المال لدفن جثمان زوجها، وهم يتوسلون لها لتجد حلًا.. فجأة نظرت حواء إلى جثمان بهلوان، واتخذ وجهها جدية وقوة مصطنعة، وطلبت منهم

أن ينتظروها في الخارج، فخرجوا في يأس من أن لديها شيئًا نافعًا، لكنه الأمل الأخير والوحيد لديهم.

أدركت حواء ألَّا منقذ لهم جميعًا إلا بحضور بهلوان، فقررت أن تكون هي بهلوان.. خلعت حواء جلبابها المهلهل من عليها وارتدت ثوب بهلوان الحريري الملون.

لم يتذوق جسد حواء من قبل ملمس الحرير، لم تكن تتصور أنه بهذه الخشونة كأن آلاف الإبر تخزها.

تحركت حواء في ألم إلى ركن من أركان الحجرة خمد فيه شوال دقيق، ومدت يدها إليه لتضع منه على وجهها، لتخفي ملامحها، حتى لا يعرفها الملك.. وارَى الدقيق ملامح وجهها، ولكنه عجز أن يواري ما به من حزن وأسى، مما قد يفسد عليها الأمر كله. زاغت ببصرها في وجوم إلى جثة بهلوان، ووجدت الحل.. اقتربت من الجثة في ثقل وزرفت عيناها دموعًا صارخة علَّها تردعها عما هي مقدمة عليه، ولكن لا بديل لديها.

جرحت حواء جثمان بهلوان في ألم أقسى من ألم أن تجرح نفسها.. نزف جثمان بهلوان في وهن بضع قطرات من الدماء، فرسمت بها على شفتيها ابتسامة قاسية.

ملعونة تلك الحياة التي نمسح فيها حزننا بدماء أقرب الناس لنا!

خرجت حواء إلى الحرس على هيئتها تلك في استسلام، كأنها قد بعثت من قبرها.. فغر الحرس أفواههم في ذهول مما فعلته حواء، وجحظت عيونهم تتفحصها في رهبة وحنق من هول ما يرون.

مرت حواء بهم دون التفات، وتقدمتهم إلى حيث يقبع القصر.. سار الحرس خلفها في خزي واستكانة.

انتشر الخبر بين أرجاء البلدة وأهلها، فخرجوا من جحورهم يختلسون النظر إلى الموكب المهيب الذي تتقدمه حواء، إلى أن دخلوا بوابة القصر.. تسلل الخبر أيضًا بين الخدم داخل القصر، فتواروا خلف الأعمدة الرخامية في البهو، حيث مجلس الملك وحاشيته في انتظار عرض بهلوان.

وقفت حواء أمام عرش الملك في تحدٍّ يختفي تحت ذلك القناع، وخلف تلك الابتسامة.

بدأت حواء في عرضها كأنها بهلوان، ترقص وتضحك وتغني، ويضحك الملك.. وتجرى ويضحك الملك.. وتبكي ويضحك الملك، ويبكي القصر كله على ما يرون.. يبكون بهلوان الذي مات ولم يدفن، ويبكون حواء التي دفنت خلف ذلك القناع وتحت ثوب بهلوان.

ظل الملك يضحك على بهلوان الذي أمامه، حتى طابت نفسه وهدأ فكره وعاد إليه مزاجه، فأمر الحرس بدفع مبلغ من المال لبهلوان إطراءً له نظير الضحك.

كان المال كافيًا لدفن بهلوان في الخفاء دون أن يعرف الملك شيئًا مما حدث.

ظل الملك يأمر بإحضار بهلوان كلما تعكر صفوه كعادته، ويجيء بهلوان ويضحك الملك، حتى إنه أعجب بالقناع الذي يضعه بهلوان على وجهه، فكان يصرخ في الحرس: "ائتوني ببهلوان ذي القناع!"،

وما يدري بأنها حواء ذات القناع.

ظل الملك هكذا طيلة حياته لم يعرف أن بهلوان قد مات، والآن حواء أيضًا قد ماتت؛ فقد فعل ابنها الأكبر ما فعلته أمه بجثة أبيه، حين قرر هو الآخر أن يكون بهلوانًا، خلفًا لأبيه وأمه.

ظلت تلك الحيلة تتوارثها الأجيال وتتناقلها البلاد، فامتلأت الأرض بالملوك الطغاة، كما امتلأت ببهلوانات تسعدهم.. بهلوانات بثياب من فضلات الملوك، وبوجوه بيضاء دقيقة، وابتسامات حمراء دمًا.

***

الليزيان 2 مجمر

أنا الغريق فمَا خوفي من البَلَلِ ؟ !

«المتنبي»

أدمنت تلك الأقراص المنومة.. إن لها مفعول السحر في عالم الحقائق الفجة، كأنها آلة الزمن، تطوي الليلة تلو الأخرى، واليوم تلو الآخر، والعمر إلى نهايته.

تنقلني في تناغم أخاذ ورفق حانٍ كحضن أمي، وتحملني فوق السحاب.. تثير في داخلي نشوة، ليس نعاسًا حقيقيًا، سقوط من سطح إحدى ناطحات السحاب إلى مسبح دافئ عطر يتلقفني ويسكنني في أحشائه، ويسكن عطره أحشائي، لا أملك حراكًا ولا كلامًا.

مجرد أنفاس لاهثة تتتابع في تواتر منتظم متباطئ.. بوابة لعالم مجهول، كأنه بوابة «لاس فيجاس» كاتمة الأسرار.

فقدان ذاكرة تام، من لحظة دخول البوابة يصيبك، حتى لحظة الخروج منها.

فجوة زمنية مبتورة من حياتك.. لا يوجد داخل هذا العالم السحري حتى أحلام.. عالم قوامه العدم!

تخرج من ذلك العالم بصحوة شاهقة، لتجد يومًا آخر وبداية جديدة يسهل الخلاص من تبعاتها بقرص آخر.. انزلاق طفل يسكنه الشيطان على «زحليقة» أبدية تلف الكون، دائرة لا تعرف لها بداية

من نهاية، انزلاق يفزع شيطانه.

طريق ممتد بين عالمين.. أرض فضاء خضراء ممتدة لا نهاية لها أحيانًا، وأحيانًا أخرى صحراوية محرقة تحدُّها حواف ونهايات قاسية من جميع الجهات..

كل ما ألاقيه في حياة العدم تلك بطولة مطلقة لي وحدي، لا بطلة تساندني ولا صديق، لا أدوار ثانوية، ولا حتى كومبارس، مجرد أنا.. أتوسط الأفيش واقفًا في حالة نعاس مثيرة للشفقة، وخلفية رمادية بها خيالات لأصوات صراخ ممزوجة بضحك هستيري، وقرص أبيض مشقوق إلى نصفين، تناثرت عليه أحرف وأرقام لا دلالة لها ولا معنى، كأنه لغز يحتاج فك رموزه.

ذلك الساحر صانع تلك المعجزة، حقق حلمًا طال انتظاره.. معروف سوف تعجز البشرية كلها عن رده.. آلة الزمن، إنها أبسط كثيرًا مما تخيلها المبدعون والمفكرون في أفلامهم ورواياتهم.

إنها أحقر كثيرًا من كل الحقائق والإثباتات والبراهين التى ركنت إلى استحالة الحصول على هذه الآلة، حلم البشرية.

لم يكن أحد يتصور أن آلة الزمن، التي صورتها الأفلام والأساطير بغرفة هائلة تتصل بها خراطيم وأسطوانات، وتصدر صوتًا رعديًا واهتزازات، كأن آلاف البراكين قد استيقظت فجأة، ويكون الانتقال بالزمن مصحوبًا بآلام مبرحة، وصداع يكاد يفجر الرأس، وأحيانًا تكون بداية الوصول أن يسقط المسافر أرضًا مغشيًا عليه من شدة الآلام والأوجاع.. إنها أبسط من ذلك بكثير، أكثر راحة وأمنًا ورفاهية من السفر عبر خطوط الطيران الإماراتية.

مجرد قرص ورشفة ماء، وانتظار سقطة، وسينتهي كل شيء.

سقطة تشبه سقطة «نيكولاس كيدج» في رائعته «مدينة الملائكة»، ولكنها تُحيلك إلى ملاك لا إلى بشر، تنزع منك كل المقومات البشرية، فالعدم منطقة مؤمّنة ضد سطوة البشر.. فجأة تشعر وكأن أجنحة بيضاء عملاقة تخرج من ظهرك، وقد تجد هالة ضوئية فوق رأسك تشبه تلك التي تحملها العذراء والسيد المسيح في صورهما المصلوبة على جدران الكنائس، أو آل البيت والتابعين عند الشيعة.

ترى نفسك مؤلهًا..

تشعر مثلما يشعر المعصومون من الخطأ..

فكل ما تقترفه من أخطاء في دنيا العدم لست محاسبا عليها فأنت مسلوب الإرادة والوعي..

تطبيق ملموس لنظريتي الفلسفية المتواضعة «أنا ورقة».. لطالما جاهدت لإقناع من حولي بتلك النظرية التيأفزع إليها عندما يكون الانسحاب من المعركة هو أقل الحلول خسارة..

أن تترك نفسك لتسقط في استسلام كورقة خريف مسالمة ومسلمة للأقدار نفسها لتسلك بها إلى الطريق المكتوب على جبينك.. ثم لتصحو ولتكتشف بأي أرض قذفت بك تلك الأقدار.. ولتبدأ حياة جديدة بهذه الأرض تشكلها وتجملها وترعاها وتحميها حتى تأتيك لحظة سقوط أخرى وسط نداءات الاستسلام من آلة الزمن.

***

صرخة

لك وحدك سأسير بحكاياتي
وحدك أنت ستسمعني
حتى وإن كنت تائهًا وسط الجموع!

«جلال الدين الرومي

بدأ الظلام يزحف متثاقلًا في السماء يطمس ملامحها في مشهد مهيب.. لم يكن الزحف في بادئ الأمر دقيقًا، فقد أغفلت ريشته طلاء بعض البقاع التي تلونت بحمرة خجلة، فصارت كقطع فحم متقدة ومتناثرة في عشوائية على صفحة السماء، التي أخذت تخبو شيئًا فشيئًا حتى اختفت.

يخلع الليل عن الكون اللعوب ثوبه الأبيض الفاضح ويلبسه عباءته الجنائزية السوداء، ساترًا كل مفاتنه، مضفيًا عليه غموضًا حذرًا.

كانت السماء تلك الليلة أكثر ظلامًا، بسبب تراكم السحب، حتى إن النجوم قد توارت خلفها واختفت، وحجبت السحب ضوء القمر فبدا واهنًا ضعيفًا.

على النقيض كانت الأرض في عرسها الليلي، الأنوار مضاءة في الشوارع، والمباني شامخة في مكانها متباهية بارتفاعاتها.

السيارات تزحف في صفوف طولية على الطرق كالأفاعي، تتلوى في ميوعة لتأخذ شكل الشارع، تنير هي الأخرى الشوارع بأضوائها الملونة حمراء وصفراء، معلنة عن وجودها بصوت فظ غليظ..

خليط من صوت الكلاكسات وصرير الفرامل ونعيق المواتير، وأيضا صوت خروج العادم الرمادي، كأنه شبح له خوار يتحرك بلا

أقدام.

وسط ذلك التناقض الليلي والأبدي بين جنازة السماء وعرس الأرض، يقبع هذا المبنى العريق شاهدًا وشامخًا وسط حدائقه التي تحول لون الخضرة فيها إلى الرمادي العفر، متلصصًا على الحياة بأضواء صفراء خافتة كأنها شموع، من خلف أسواره الحديدية السوداء ذات الجنازير الفولاذية الفجة.

يقف المبنى متكئًا على أعمدته الشامخة والمحلاة بنقوش غير محددة، فقد تحول الغائر منها إلى الأسود بفعل الأتربة والأوساخ، وتحطم معظم البارز منها وتساقط بفعل الرطوبة والزمن.

كان المبنى، على شموخه وتحديه للزمن، يضفي عليه الكآبة والوحشة، فبدا وكأنه قطعة من حزن السماء قد سقطت على الأرض.

أمام البوابة الضخمة للمبنى يقبع كشك خشبي به حارسان مهمتهما حماية المبنى من أي دخيل أو معتدٍ ليلا، وبما أن هذا المبنى أصبح الآن أحد المباني الحكومية؛ فهو يوصد أبوابه في الثالثة عصرًا، ولا يدخله أحد بعدها ولا حتى يفكر.

ليس بالمكان ما يطمع طامعًا، ولا يقضي حاجة بعد الثالثة، مما جعل عمل الحارسين روتينيًا إلى درجة الملل.. فقط يجلسان داخل كشكهما الخشبي المتهالك، أو أمامه، يصارعان عقارب الساعات بسمرهما وضحكاتهما، ولا مانع من أن يطفئا جمر الساعات بصب أكواب الشاى، فتفوح منها رائحة الرطوبة المحترقة، ويتراقص الدخان فوق حواف الأكواب في ليونة الغوازي وتصاعد الأرواح،

وأحيانًا يغلبهما السكوت فيطبق على صدريهما قبل شفاههما، فتتلقفهما الغفوات في حنو الأم على وليدها، وقد يستسلمان للنعاس على كراسي خشبية، مكتوفي الأيدي ممددي الأرجل، ساكنين كأنهما من أهل الكهف، أو كأنهما الكهف ذاته، إلى أن تلدغهما أصوات الطريق لتفيقهما حنقًا وسكرًا.

هكذا ينقضي ليلهما وينقضي عمرهما أيضًا في انتظار اللا شيء، ليكسر تروس الساقية التي يدوران فيها ولو لليلة واحدة.

في هذه الليلة، وأثناء جلوسهما غير العابئ بما يدور حولهما، زحفت إليهما سيارة فارهة سوداء اللون في هدوء ثقيل، فمثل هذه السيارات الغالية الثمن لا يسمع لمحركاتها سوى فحيح خافت كأنه وشوشات تائهة.. توقفت السيارة أمام البوابة وأُطفئت المحركات وثبت المشهد.

بدت السيارة كأنها تناجي ربها في صمت صوفي أمام أحد أضرحة أولياء الله الصالحين، نظر الحارسان بعضهما لبعض في تساؤل متخاذل، وامتعضت شفاههما معلنتين بألّا تفسير عند أحدهما للمشهد.

ترجل أحد الحارسين في حذر نحو السيارة، يحاول أن يخترق بنظره زجاج السيارة الأسود هو الآخر ليتفحص ما بداخلها.. توقف على مقربة من السيارة وقد يئس تفحصه عندما رأى صورته مطبوعة على الزجاج في عناد وتحدٍّ.

ثبت المشهد مرة أخرى لبرهة، إلى أن تحرك الزجاج هابطًا ملتهمًا

صورة الحارس وكاشفًا لما تحويه السيارة.

بدأ الحوار خافتًا بين السائق والحارس، كاد يقتل الحارس الآخر فضولًا، فنفض عن نفسه الكسل ودبت فيه الحياة، فمد الخطا إلى صديقه وأدخل رأسه معه إلى فوهة السيارة، ليحلا محل الزجاج ويواريا قلب السيارة من جديد.

ثبت المشهد ثالثًا، لكنه طال هذه المرة، وبدأت حدة الحوار تعلو بين ثلاثتهم وتتطاير منها عبارات منع وتحذير بصوت ثنائي، واستجداء وترجٍّ بصوت فردي.

توقف الحوار بعد حدته فجأة، ولفظت السيارة رأسي الحارسين، فتراجعا بضع خطوات ليسمحا لباب السيارة أن يفتح..

بالفعل فتح الباب، وانسلت منه رجل في أواخر العقد الرابع من عمره، تبدو عليه العظمة والهيبة، يرتدي بالطو أسود طويلًا من الصوف الإنجليزي الفاخر، ببطانة حريرية حمراء تتلصص من تحته كلما كاشفتها الريح، أو غافلتها حركة مفاجئة من جسد الرجل المنفعل بحواره مع الحارسين.

يخفي البالطو تحته حلة سوداء هي الأخرى، ينصع تحتها قميص أبيض، تخنقه في أناقة رابطة عنق داكنة اللون..

بدا على وجوههم العناد، وثبت كل في مكانه في حنق، ويئسوا من الوصول لحل ينهي هذه المهزلة.

ركن الرجل ظهره إلى السيارة في حيرة، معلقًا عينيه بالحارسين

الماثلين أمامه في صلابة..

تفحصهما بعينيه، وفجأة ارتسمت على وجهه ابتسامة صفراء ساخرة، وفي هدوء أخرج من طيات البالطو في حركة سحرية علبة سجائر مستوردة، فتحها وضرب على رأسها فاشرأبت أعواد التبغ البنية من داخلها.. مد يده بالعلبة إلى وجه الحارسين كأنما يمررها بأنوفهما لتغريهما رائحة تبغها الصافية الساحرة.

بالفعل نجحت خطته، فضعفت حدة الملامح المرسومة على وجهي الحارسين، وتحولت في تدرج إلى الاستسلام، وفي تعفف مفتعل سحبت يد الحارس الأول إحدى هذه السجائر، فيما خطف الآخر سيجارته في نهم وشره.

أخرج الرجل من يديه قداحة فضية وأشعلها، فالتهمت النيران أطراف السجائر باعثة منها خيوطًا دخانية صافية ذات رائحة تذهب العقول وتذيب القلوب.

عاد الحوار بين ثلاثتهم، لكن في هدوء هذه المرة، بعد أن لانت العقول، وبدا أن ثمة اتفاقًا يبرم بينهم ليرضي جميع الأطراف، فتحول الرجل من دور المتوسل إلى دور المقنع الحكيم، وتحول الحارسان من دور التعنت والعبوس إلى دور الاستكانة والتأفف المصطنع، إلى أن أزاحت ابتسامة القبول أدوار الجميع.

أدخل الرجل يده في جيب بنطاله بعد أن أزاح ذيل البالطو لتتراقص بطانته الحمراء في زهو المنتصر، وأخرجها بكومة من الأوراق المالية، قسمها بين الحارسين في عدل وثقة، وسط توتر

واضح على ملامحهما، وتشتت أنظارهما في تفحص خلاء الكون حولهم، كأن آلاف الأشباح تتراءى لهما وتتقاسم معهما رزقهما، وسط غفلة من الضمير الذي أعياهما عناده سنين كثيرة.

في حذر تحرك أحد الحراس إلى البوابة الحديدية، ممسكًا في يده سلسلة مفاتيح دس أحدها في القفل المتدلي من الجنزير الحديدي المحتضن ضلفتي الباب.

في قوة تحرر القفل تاركا خلفه الجنزير المتراخي الأطراف، فسحب الحارس أحد طرفيه، فدوى صوت صلصلة احتكاك حلقاته بقضبان البوابة، فرمقه صديقه في تعنيف، فيما دلف الرجل إلى سيارته مرة أخرى وأدار محركها.

فتح الباب في تثاقل واهن ومهابة أسطورية، فابتلع السيارة التي دلفت في هدوء وثقة تعرف طريقها إلى مبتغاها فوق الأرض المفروشة بالرمل والحصى، تاركة الباب الذي ينغلق خلفها مرة أخرى في نفس التثاقل، لتستقر الضلفتان في ثباتهما وكأن شيئًا لا يحدث بالداخل.

لم تتوقف السيارة أمام المبنى، بل أكملت المسير إلى ما خلفه، حيث الأرض المهجورة التي كانت ملعبًا لكرة القدم قبل أن تضمها الحكومة إلى أراضيها لتبني عليها في المستقبل البعيد مبنى آخر ملحقًا بالمبنى الرئيسي، وحتى ذلك الوقت فالأرض خرابة.. أرض فسيحة مسورة ببوابة متهالكة مفتوحة على استحياء يواربها، لا يدخلها أحد ولا يراها أحد، ولا يعرف عنها إلا قليلون.

توقف الرجل بسيارته أمام بوابة الملعب القديم، وترجل منها مزيحًا ضلفة البوابة التي انفتحت في استسلام.. عاد الرجل إلى سيارته ذات الباب المفتوح، نظر للأرض وأخذ نفسًا عميقًا كأنه يريد أن يبتلع المكان كله، وأخرجه في قوة وظفر.

التفت إلى باب السيارة المفتوح، وبدأ ينجز ما جاء من أجله.. خلع البالطو من عليه في هدوء، راميًا إياه داخل السيارة، ثم تسللت يده تحرر أزرار الحُلة وتخلعها، ومنها إلى رابطة العنق، ثم إلى أزرار القميص، فالبنطال، ثم الملابس الداخلية، فاستقرت كومة هرمية من الملابس فوق كرسي القيادة، خلف الباب المفتوح الذي سكنت تحته فردتا حذائه.

مشى الرجل عاريًا كيوم ولدته أمه، في خُطى متئدة، إلى أن وصل إلى منتصف الأرض، حيث نقطة ارتكاز الملعب، ونقطة بداية المباراة، لا يستره سوى الظلام الذي زحف أكثر بعد أن تكالبت الغيوم على ضوء القمر.. نظر إلى موضع قدميه ليؤكد ارتكازهما في نقطة الانتصاف.

تحرك رأسه إلى أعلى في بطء شديد، حتى استقرت عيناه على النقطة الوهمية لانتصاف السماء.. برقت عيناه وأخذ نفسًا عميقًا جدًّا حتى انتفخ صدره العاري وتكور.. كتم نفسه في ثبات، فبدا كالمنطاد على وشك الطيران.

فجأة أخرج النفس في صرخة دوت في أرجاء الأرض، وأخذت الأسوار والمباني المحيطة ترددها كأنها آلاف الحناجر تصرخ معه.

صرخة قوية طويلة، خرجت بالنفس العميق، ومعه كل قوى الرجل، فسقط أرضًا على ركبتيه، وبدأ يبكي مخفيًا وجهه بيديه، والدموع تزحف من كفيه إلى ذراعيه إلى الأرض.

أخذ ينهنه كالأطفال، تلاحقه أنفاسه فتغلبه ويغلبها، إلى أن استقرت يده على صدره في موضع القلب، وأخذ يهدئ من نفسه في معاناة شديدة، وما زال صدره يرتفع وينخفض كأن بداخله ملايين السجناء يبحثون في استماتة عن الحرية.. شيئًا فشيئًا هدأ المشهد وثبت.

عاد السكون القابض مرة أخرى إلى المكان، وفجأة أضيء الكون بوهج أزرق كأن السماء تفضحه ببرقها، كأنها تقول له:

- "أنا اراك وأنت عارٍ.. أنا أراك في أضعف حالاتك واستسلامك ويأسك.. هربت من الجميع ولكنك لن تهرب مني، لن تهرب مني!".

سكن الكون في ترقب وانتظار لرد السماء على صرخة الرجل، وكان الرد عنيفًا، صرخة السماء راعدة، فهزت المكان كله لتنسيه صرخة رجل عارٍ ضعيف، صرخة أسكنت حتى حناجر الأسوار والمبانى المحيطة التى آزرت الرجل في صرخته.

ذرفت السماء دموعها في عنف حاملة الخير للأرض كلها.. اختبأ الحارسان من شدة المطر داخل كشكهما الذي يمنع عنهما الماء، في تهاون وتكاسل، كما يكشف لهما من خلف الزجاج المغبر لشراعته الصغيرة بوابة المبنى.

تعلقت أعينهما بتلك الشراعة مجاهدين تلك الخطوط التي ترسمها

قطرات المطر على الزجاج من الخارج، وتكثف صهد أنفاسهما عليه من الداخل.. ظهر ضوء من داخل أبوابه اخترق كل الحواجز، حتى استقر مع الحارسين داخل الكشك.

نظر الحارسان بعضهما لبعض، ورمق أحدهما الآخر بنظرة ففهمها.. خطف الحارس معطفه المعلق على مسمار ولبسه رافعًا ياقته في غيظ، ظنًّا منه أنها ستحميه.

خرج الحارس من الكشك مصارعًا الرياح العاصفة والأمطار الغزيرة والأرض الموحلة، والآخر يراقبه في اهتمام بالغ من خلف الشراعة.. نجح الحارس في الوصول إلى البوابة في صعوبة، خلع القفل وسحب الجنزير غير مبالٍ بصوته، فالمطر والرعد والبرق قد أسكت كل الأصوات.

فتحت البوابة فاقترب الضوء منه أكثر فأكثر، فأعماه، حتى تجاوزه، واستقرت السيارة أمام الكشك، فيما انشغل الحارس الأول في إغلاق البوابة بصعوبة.. فتح زجاج السيارة في بطء فظهر من خلفه الرجل في كامل أناقته وهدوئه.

نظر إلى الحارس داخل الكشك ولوح له بيده، فردَّ الحارس بالمثل من خلف الشراعة مبتسمًا.

أغلقت النافذة وتحركت السيارة بعيدًا عن المبنى في خفة ورشاقة، حتى تاهت وسط الزحام، وما زالت السماء تمطر حتى الآن.

***

زائر الضباب

ألق بنفسك على باب الرضا

وانخلع عن عزائمك وإرادتك

«أبو الحسن الشاذلي

«الضباب يغطي شمال مصر.. ظاهرة غير مسبوقة في مناخ مصر».

عنوان قرأته في قصاصة ورق من جريدة ملقاة تحت إحدى ماكينات المصنع، باقي الورقة كان مهلهلًا ومليئًا بالشحم، وبقع من الزيت أحالت الورقة إلى شبه شفافة، مما جعل وجهها وظهرها مطبوعين على سطح واحد، وجعل معظم الكلمات كأنها رموز أو طلاسم أو كتابات إغريقية أقدم من الزمن، يصعب فك شفرتها.. فقط نجا من هذه المعركة الطاحنة بين الكلمات والبقع الزيتية وبصمات ذلك العامل -التي تدينه كفاعل لهذه الجريمة، بأن نظف يديه من الشحم والزيت بهذه الورقة- العنوان وتاريخ إصدار هذه الجريدة، 15 ديسمبر 2009. إنه اليوم.. أقصد إنه البارحة، لا لا، إنه نهارًا.. لست أدري، فالساعة الآن الثانية والنصف بعد منتصف الليل.

كاد يقتلني الملل، فأنا ما زلت في انتظار منقذي «أحمد الدالة» زميلي في العمل الذي سوف يستلم مني وردية الليل، والذي كان من المفترض أن يكون هنا من الساعة الواحدة.

نعم لقد هاتفني وقال لي معتذرًا إنه في الطريق، لكنه سوف يتأخر قليلا بسب تعثر الحالة المرورية، بسبب كثافة الضباب.. كان قد كدني العمل، وأهلكتنى قلة النوم؛ فأنا لم أبرح المصنع منذ أن

استلمت وردية النهار في الثامنة صباحًا.

لم أترك المصنع، لم أرَ طوال اليوم سوى تلك الماكينات الصدئة المتراصة كأنها أضرحة، وتلك الحوائط التي ذبلت وأشقتها الشروخ جروحًا غائرة، وحالَ لونها إلى الأسود القاتم حتى صارت كوجه عجوز شمطاء إفريقية.

لا يدخل الضوء إلى المصنع إلا خلسة، أو بطرق غير مشروعة، فلا ملاذ للدخول إلا من خلال الكسور الموجودة في زجاج نوافذ السقف، ذلك الزجاج الذي فقد الكثير من خصائصه فلم يعد لا شفافًا ولا ناعمًا، حتى قابليته للكسر قد وهنت من جراء تلك الأتربة السوداء المتحجرة عليه منذ سنين.. لم يكن مختلفًا كثيرا عن وجه نفس العجوز الإفريقية.

يتدلى من سقف المصنع الكبير ثلاثة مصابيح كأنها رقاب في المشانق، مصباح واحد فقط مضيء، وقد وهن من ضوئه ذلك الكربون الأسود الذي كسا زجاجه، فصار ضوؤه قاتمًا مرتعشًا وحذرًا.

هكذا قضيت اليوم ومعي رائحة الضباب المتسللة من فتحات وشروخ وكسور الزجاج، أشم الضباب ولا أراه.

أخيرًا جاء الفرج، إنه أحمد الدالة.. ما إن جاءت عيناه في عيني حتى أخذ يعتذر ويمطرني بأسباب وحجج حقيقية وملفقة، وأخذ جسده البدين يهتز مع انفعاله وحركة يديه.

كنت أنظر إليه من خلف قضبان رموشي.. تملك التعب مني حتى

أصبحت أجاهد لمجرد إبقاء عيني مفتوحتين.. بدأت أشعر بهلاوس تأكل رأسي.

إنني لم أتهمه بشيء، وحتى لم أُلُمْه.. إنه في غنى عن كل ما يقول.

كلامه يزيد من أوجاعي، وحركاته السريعة على جسده المكتنز المكتظ باللحم تزيد من صداع رأسي وزغللة عيني.. لملمت أغراضي وتركتها خلفي، ما زال يتكلم وينادي.

لم أنبس ببنت شفة سوى: «كل شيء مقيد عندك في الدفتر.. سلام!».

بخطوات تائهة زائغة وجدتني أقترب من بوابة المصنع، وكلما اقتربت زادت رائحة الضباب تغلغلًا في داخلي، حتى أصبح الباب على مقربة بضع خطوات مني.. ناديت على رفاعي ليفتح لي البوابة ليعلن نهاية ذلك اليوم العصيب.

جاءني رفاعي وهو ينفض عنه شباك النوم، فتحت البوابة الحديدية وزحفت في تثاقل على الأرض، وبدأ الضباب يزحف هو الآخر في حذر وترقب صوبي.

وجدت أمامي الكون شاشة بيضاء.. لأول مرة في حياتي أرى ضبابًا بهذه الكثافة.. اتخذت أنا الآخر صوبه خطوات واثقة كأني أعرفه، أو أنني كنت في انتظاره.. ابتلعني الضباب.

بالكاد أرى كف يدي.. مصابيح الشوارع ضوؤها خافت مشتت يختبئ خلف تلك الصفحة البيضاء. لسبب أجهله أحسست بألفة

تجاهه، وشعرت أنه هو الآخر قد أنس إليّ.

كان يتحرك جواري.. يحتضنني.. يتخللني.

قررت أن أعود إلى البيت سيرًا.

مسافة كبيرة تلك التي بين المصنع في المندرة، ومنزلي في سان ستيفانو، ولكنني كنت مذهولًا أو كمن ندهته النداهة! كأن الضباب يحملني ويتحرك بي في هدوء.. امتلأت ضبابًا.. كان يحيط بي من كل جانب.. كان في داخلي.

استحالت الدنيا إلى صفحة بيضاء، لترسم عليها مخيلتي بأناملها الدقيقة صور هلاوسي المتضاربة، أراها ترسم وجوهًا أعرفها، وجوهًا أحبها, وجوهًا أمقتها، وجوهًا يأخذني الحنين إليها, وجوهًا أشعر نحوها بالذنب، وجوهًا تخيفني.. وصوت البحر، وأصوات السيارات التي تمر بهدوء داهسة بعجلاتها حصى الطريق، والسكون والهدوء الذي يخيم على ملامحها البريئة.. لماذا تركتها؟!

لقد كانت بالنسبة لي الحياة.. أنشودة كنت أغنيها.

براءتها الطاغية، ونظرتها الخجول الهاربة من العيون يميزانها.. كانت تقول لي:

«أنا سعيدة لأنك في حياتي»..

بعدها يتبدل بياض وجنتيها ويخضبه احمرار الخجل، وتزيغ بنظرتها إلى مكان قصي بعيييد حيث تحتضن السماء الأرض.

تتعذر الرؤية في هذا الضباب، ويثقل جفني أكثر وأكثر.. أتحرك وحولي الضباب يتهادى ويحنو عليَّ في دنو غريب من الأرض.. كأنني راعٍ لقطيع من الخراف البيضاء, أسير في وسطها.. القطيع لا نهاية له.. قطيع يأخذ الأرض من أقصاها إلى أقصاها.

أشم رائحة الضباب, إنها تشبه كثيرًا رائحة الاحتراق.. صوت البوم ينعق.. صوت الضفادع والحشرات.. صوت قرقعة النار وهي تفقأ حبات كيزان الذرة التي تشوى، تقطع سكون الليل.

أجلس وأبناء عمي في جوف الليل والظلمة، تحت شجرة الزنزلخت العجوز التي قام «صلاح الجندي» أمين الشرطة ذو الجسد الضخم والقلب الضعيف بتسلقها والقفز من أعلاها في الترعة قبيل الفجر، ليثبت لنا أنه لا يخاف.. عرفت بعد ذلك أنه بات طريح الفراش أكثر من شهر بعد هذه القفزة، وأن خصلات من شعره ابيضَّ لونها كأن الضباب قد خضبها بلونه.. وكأنني أسير نائمًا.

ملاك ينام فوق السحاب، أو شيطان خرج من فوهة بركان.

لم أعد أتحمل كل هذا التعب.. أغمضت عيني في تهالك، وفجأة.. «على السادة الركاب ربط أحزمة الأمان استعدادًا للهبوط التدريجي».. ضباب وسحب أراها من نافذة طائرة «مصر للطيران».. الرحلة رقم «722» المتجهة من القاهرة إلى مطار الملكة علياء في عمان- الأردن، الأرض الوردية، أرض البتراء.. تلك الأرض التي يسكنها الأردنيون والفلسطينيون في صراع داخلي يتلخص في هذا الحوار:

إحنا الأصل..

ونحنا ضيوفكن من فلسطين.

شو هاد؟! ما في شي اسمه فلسطين.. بلكي بتقصد إسرائيل؟!!

أسمع هذا الحوار وأغمض عيني من الذهول والتعب.. حتى عندما أغمض عيني لا أرى شيئًا سوى اللون الأبيض.. لماذا يقترن الضباب برائحة الحريق تلك التي أستنشقها؟! إنها تصنع بداخلي نشوة هائلة.. أنفث دخان أرجيلتي في سوريا كأنني أُخرج في كل نفس همًّا من همومي.

في سوريا حيث يختلط صوت الباعة في أسواق الحامدية، مع صوت فرقة الإنشاد الديني المتهيئة لإقامة أذان الفجر من المسجد الأموي، معلنة الإمساك عن الطعام والشراب.

أنظر إلى تلك المئذنة الشامخة التي تناطح السحاب والزمن.. قيل لي: "عاش عيشة هنية وتزوج شامية".. وأيضًا قيل لي عن حال الأزواج: "أسد حزين، أو أرنب سعيد؟".

رددت في زهو فرعوني ساخر: "أسد سعيد إن شاء الله!".

قالوا: "أو أرنب حزين!!".

أرنب أبيض اللون يتحرك في خفاء وسكون الليل.. لا بل ملايين الأرانب البيضاء تتحرك ملاصقة لبعضها البعض، تتحرك ببطء شديد وتحملني على ظهورها.

لست واثقًا إن كنت أنا الذي أتحرك، أم أن الأرض هي التي تميد تحت قدمي! تتثاقل خطاي شيئًا فشيئًا.

يهذيني التعب، ولكني في أسعد حالاتي.. لطالما انتظرت هذا العرض لأعرف ما معنى أن تكون قدماك في الأرض وروحك في السماء ساعية إلى أعلى درجات الترقي، حيث الخروج من الذات الأرضية، والترنح طربًا بالعروج روحيًا ووجدانيًا إلى الذات العليا.

ما زال أربعتهم يدورون كأنهم أفلاك سماوية حول مولاهم الذي يهيم شوقًا في كلمات يتغنى بها.. ذلك الهائم الصوفي في وسط المسرح الخافت الإضاءة، بزيه الأبيض، وحوله تلك الدوائر الأربعة، يمثلون كل شيء في الكون.. فكل شيء في معتقدات هؤلاء المتصوفين يعبد الله في حركة دورانية حول نفسها، وأيضًا حول مولاها، ومن ذلك الدوران تنشأ درجات الترقي والتقرب.

مُحَمَّدٌ سَيِّدُ الكَوْنَيْنِ والثَّقَلَيْـ ... ـنِ والفَرِيقَيْنِ مِنْ عُرْبٍ ومِنْ عَجَمِ
نَبِيُّنَا الآمِرُ النَّاهِي فَلاَ أحَدٌ ... أبَرَّ في قَوْلِ لا مِنْهُ ولا نَعَمِ
هُوَالحَبيبُالَّذِيتُرْجَىشَفَاعَتُهُ ... لِكلِّ هَوْلٍ مِنَ الأهْوالِ مُقْتَحَمِ

ما زال الدوران مستمرًا، وما زالت الأضواء خافتة، وما زال مولانا يحدو بأناشيده ويقفز بنا من أبيات البوصيرى إلى أبيات الحلاج، فينهل جزءًا من البردة ويتركنا نكمل «طلعَ البدر علينا» ثم يختمها بـ «لبيك معنائي»:

لَبَيْكَ لَبَيْكَ يا سِرِّي ونَجْوَانِي ... لَبَيْكَ لَبَيْكَ يا قَصْدِي ومَعْنَائِي
فكَيْفَ أصْنَعُ في حُبٍّ كَلِفْتُ بِهِ ... مولايَ قد ملَّ م ن سُقْمِي أطِبَّائِي
قالوا تَدَاوَ بِهِ مِنْهُ فقُلْتُ لَهُمْ ... يا قَوْمِ هَلْ يَتَدَاوَى الدَّاءُ بِالدَّاءِ؟!

حُبِي لِمَوْلايَ أَضْنانِي وأَسْقَمَني   فكَيْفَ أَشْكُو إلى مَوْلايَ مَوْلائي ؟!!

إحساسٌ بأنِّي أطير ويخف وزني مع كل مقطع من الابتهالات.. أجد في صوت قدمي على الأرض الرطبة بالضباب خلفية إيقاعية رائعة.

أدقق السمعَ أكثر فأكثرَ، ويعلو صوت الغناء من ذاكرتي إلى رأسي إلى لساني، وأزداد انجذابًا بأن تحولت خطواتي على الضباب إلى رقصات على الإيقاع.. سقط جفني من التعب وأنا أدور مثلهم في ترنح بتنورتي الضبابية البيضاء الهائلة الثقيلة التي تغطي الأرض.

بدأت حركة خفيفة تدب من حولي لتقطع حبل الهلاوس وتعيدني إلى طريقي مرة أخرى.. إنهم أناس نفضوا عنهم النوم استعدادًا لأداء فريضة الله، يخرجون من بين طيات الضباب بتلك اللحى البيضاء كأنهم ملائكة الله يمشون على السحاب، يظهرون فجأة أمامي وأتفادى الاصطدام بهم بصعوبة، وصوت الكرة وهي تضرب الأرض بقوة كأن بيني وبينها ثأرًا قديمًا.

أقفز لأعلى واضعًا الكرة في السلة.. يصفق لي كل التلاميذ في فناء المدرسة.. أولاد وبنات..

هي من بينهم, جالسة على مصطبة في الفناء تشاهد المباراة بين فريق فصلنا وفريق آخر.. أبذل قصارى جهدي في أهم مباراة في حياتي, تلك التي تشاهدها فتاتي.. هي تصفق لي بشدة.. أو تصفق لفريق فصلها كله.

يمر ذلك المدرس بعصاه اللينة كالأفعى ويضربها على رأسها.

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أمسك الكرة وأقذفه بها بكل ما أوتيت من قوة ومن حب تجاهها.. تصطدم الكرة بأم رأسه ويقع أرضًا.. يلتف حوله الطلبة بملابسهم البيضاء ويخفوه داخل دائرة من أجسادهم، لا أكاد أرى ما يحدث خلف تلك الكتلة البيضاء، لكني أسمع أصوات احتكاك الشباشب والقباقيب في الأرض.. وأتفرس شكل وسِنَّ الشخص الذي يصدر ذلك الصوت..

تلك خطوات متسارعة رشيقة, فهي لشاب ألهمه تفكيره وهدته فطرته إلى اللجوء لله في أيام الامتحانات لأداء صلاة الفجر في جماعة.. هذه مثلًا خطوات بطيئة ثقيلة، يصحبها صوت عصا تدب على الأرض.. يقترب الصوت أكثر فأكثر.. وفجأة ينفتح الباب وأرى من خلفه جدتي حاملة حبة فاكهة لتعطيني إياها وأنا أذاكر في الليل.. تمسحها في ملابسها ذات النقوش الخافتة أو في طرف طرحتها البيضاء التي غطت الكون.

ثوب أبيض كبير لبسته الأرض كأنه ثوب عرسها.. أو كفنها.

أخذت الأشجان تضاربني، والصور تتلاحق مسرعة على تلك الصفحة البيضاء.. شاشة عرض لا ينتهي عرضها.. وجوه ومواقف, ذكريات وأصوات.. حياة كاملة داخل ذلك الضباب.. أو موت.

أشعر أنني مثل شجرة الصمغ، التصق بي غبار الطريق، أشعر بالرطوبة تلصقني ببعضي.. أطبق يدي وأفردها في صعوبة شديدة.. رائحة الضباب تخالطها رائحة يود البحر، تسكنني.

فتحت باب الشقة في هدوء حتى لا يشعر بي أحد، ودخلت أتحسس طريقي في الظلام.. خلعت ملابسي كلها، وفتحت الماء الساخن حتى امتلأ الحمام كله بالبخار.

غُصت في الماء الساخن لأزيل ما علق بجسدي من جراء هذه الرحلة.. لكن ما علق بذهني خلالها لن يمحوه الماء الساخن ولا البارد، ولا حتى آلاف السنين.

لن تذهب بعيدًا

الوداع لا يقع إلا لمن يعشق بعينيه

أما ذاك الذي يحب بروحه وقلبه

فليس ثمة انفصال . . أبدًا

«جلال الدين الرومي

إنها أول مرة في حياتي أشعر فيها بعمري، نعم أعرف أني قد تجاوزت السبعين عامًا منذ عدة أشهر، ولكني لم أشعر بهذا العمر، كأن العمر كله قد فر كالقطار في تلك الليلة.

إنها أول ليلة أقضيها وحدي في هذه الغرفة.. لم أعرف معنى الوحدة إلا هذه الليلة، رغم أن رفيقة العمر قد رحلت منذ شهر, لكنها، هذه الليلة، هي أول ليلة أقضيها في منزلنا (أقصد منزلي أنا وهي).

لم أشعر أن هناك فارقًا كبيرًا؛ فالفارق الوحيد هو أنني قد بدأت أعدُّ أيامي بعد أن كنت أعيش معها في ذكريات الشباب، لم نكن نعرف أيامها أنها ذكريات، فقد كانت أحلى من أيام الشباب نفسها، لقد أصر ابني على أن أقضي هذا الشهر في منزله, لكني كنت أريد أن أعجل بهذه الليلة, كنت شغوفًا لمعرفة ما سيحدث بعد أن تركني الجمع الغفير من البشر, وأصعد أنا -ولأول مرة منذ أكثر من أربعين سنة- وحدي ذلك السلّم, فقد صعدنا عليه أيامًا ونحن نسبق ظلنا, وأيامًا ونحن عجوزان تسابقنا العصيُّ التي نتوكأ عليها.. إنه الملل، نعم ملل.. لم أكن أعرف أنها ليلة بهذا البطء, لم تجئ حتى الليلة.

إنه أذان المغرب.. كأن صوت الأذان بذلك الصدى، صوت يخرج من داخلي, صوت لم أسمعه من قبل، وكأنه صوت الصمت الذي لم ولن يسمعه أحد إلا أنا، أين أنت كي تشدِّي على يدي كي أصلي؟!

لم تعد لدي رغبة في الصلاة، رغم أني لم أترك فرضًا قَطّ طوال حياتي.. ما الذي حدث؟ ما الفارق؟!

هل كل هذا حدث بسبب ذلك اليوم؟! لقد جئت يومها بعد صلاة المغرب فوجدتها ملقاة, ظننتها نائمة في بادئ الأمر، فذهبت أداعب خصلات شعرها البيضاء, لقد كانت أجمل مرة أراها فيها -لم أكن أعرف وقتها بالحادث- وكأن الزمن قد عاد بها, وكأن أربعين عامًا من الزمان قد اختفت من عمرها, حتى شعرها كان لونه يميل إلى الصفرة.

لمّا لم أجد منها حراكًا، لم أدر ماذا أفعل, اتصلت بولدي.. وجاء، جاء فوجدني أحملها.. نعم حملتها، حملتها على راحتي كأنها في ليلة عرسها.

لم أصدق أنها رحلت، وحتى الآن لا أصدق، وجاء من ظنوا أنني جننت.. جاءوا ليأخذوا عصفورتي من بين أحضاني, لم أوافق, نعم إنها لم تمت, كيف تموت وتتركني وحدي؟! هكذا قلت لهم فلم يصدقوني.

إنهم حمقى, مجانين!! أخذوا يصرخون وينوحون.. لقد سمعتها، إنها تقول لي: لا تبكِ.. ولم أبكِ، كنت أعرف أنها لن تذهب بعيدًا.

جاء من يريدون أخذ خاطري, لم يعرفوا أني بعدها لم يبقَ لي شيء ليأخذوه.. رفضت أن أسلم على أحد, كيف أسلم على هؤلاء الحمقى؟! لقد أخذوا عصفورتي من قفص صدري!! كنت أفكر في أن أذهب بعد أن ينفضّ الجميع إلى المقابر لأخرجها.

انفض الجمع من حولي وكأنهم أمواج البحر المدبرة, الجميع ذهب لحياته الطبيعية لم ينقصهم شيء, أما أنا فلم يعد لي شيء, أي شيء!!

ما لهذه الليلة تأبى أن تمر؟! الظلام كأنه وحش, حيوان يزحف ويزحف حتى لا تشعر به فريسته, إنه لا يعرف أن فريسته قد فقدت الرغبة في الحياة, كأنها تريد أن تقول له: "اطمئن لقد أصبح الآن لنا نفس الهدف".

إنه وحش له ملايين الأعين.. إني أراها, إنها تبرق في السماء, السماء التي أخذت مني أعز ما أملك في الحياة, لكني كنت أعرف أنها لن تذهب بها بعيدًا, أنا متأكد من ذلك.

***

مللت رؤية تلك القوارير, إنها تتراقص على الأرفف, تعذبني بذلك اللون القاتم.. إنه الدواء!! دواء لأي داء؟ داء البدن؟ أليس لداء النفس دواء كالبدن؟!!

جرس التليفون يدق, كأنه يصفعني, لا أريد الرد عليه, أكيد هو ابني يريد الاطمئنان عليَّ، خاصة أنني رفضت أن يبيت معي هذه الليلة، ما زال الجرس يدق ويدق, لم ألحظ طوال حياتي أن له هذا الصوت المزعج، إنه يشبه صوت الصراخ الذي مللت سماعه.

كأن التليفون يبكي هو الآخر، يبكى لفراقها، أو يبكي لحالي.. لست أدري, المهم أنه يبكي، وبكاؤه هذا لن يعيدها، ولن يصلح من حالي شيئًا.. الحمد لله؛ لقد توقف عن النحيب والصراخ, لقد كانت

هذه طريقته في التعبير عن حزنه.

ساد الهدوء مرة أخرى, هدوء قاتم يقبض القلب, يُشيب الرضيع, لكنه لن يعيدها, وأعرف أنها لن تذهب بعيدًا.

يبدو أن ولدي يصر أن يزعجني بذلك التليفون, ويبدو أيضًا أنه لا مفر من الرد عليه، ما ذنبه أن يقلق علي هكذا؟! وددت لو رفعت السماعة ووضعتها دون الرد، لكن قلقه سوف يدفعه إلى المجيء إليَّ، وهذا ما لا أريده, وما لا يريده هو أيضًا.

لم أجد بُدًّا من الرد عليه. رفعت السماعة ووضعتها على أذني ولم أتكلم، رغم أنه من الطبيعي أن أبدأ أنا بالكلام.. أعرف ذلك، لكني كرهت كل الطبيعي.. كرهته.

بابا ما لك؟! بابا! بابا!!

لم أملك سوى تلك الكلمة المقتضبة:

- أيوه.

- بابا.. ما لك ما بتردش على التليفون ليه؟ إنت تعبان؟! بابا، أجيب الدكتور وأجيلك دلوقتي؟! أجيلك يا بابا أنا و...

أخذ يسترسل في الحديث وأنا لا أسمع منه شيئًا, كل ما فهمته أنه قلق عليَّ, وكان الرد المناسب:

- ما تقلقش عليَّ.. أنا بخير.. كنت نايم.. اقفل علشان أكمل نوم!

لم أنتظر منه ردًّا, وضعت السماعة كأني كنت قابضًا على جمرة

من النار.

كرهت هذا المنظر رغم أن عيني قد اعتادت رؤيته, فمنذ أكثر من خمس سنوات وهذه الأدوية متراصة هكذا لم يتغير منها شيء.. لا.. لقد تغير, يبدو أن ولدي قام بإلقاء كل الأدوية التي كانت تخص أمه حتى لا تختلط مع أدويتي.. خير ما فعل، فلا أضمن نفسي بعد أن وهن النظر أي دواء آخذ..

لكن ماذا كان سيضرني لو أخذت دواء بالخطأ؟

هل هناك أسوأ من الموت؟!

لقد كانت هي أشجع مني, لقد جربته وعرفت ما به, صحيح أنه كان أمر الله أن تحين ساعتها قبلي، ولكن كان يجب أن أكون أنا قبلها, هكذا تعودنا.. هكذا كنت دائمًا سابقًا بخطوة.

كنت أبدأ أنا دائمًا بتجربة الشيء حتى إذا وجدت منه ضررًا، أواجه أنا هذا الضرر, كنت قادرًا على مواجهة أي ضرر.. يبدو أنها قد لمست فيَّ من الوهن ما لم يساعدني على ملاقاة الموت، فقررت أن تسبقني بالتجربة هذه المرة, إنها المرة الأولى التي تسبقني فيها بشيء.. والأخيرة أيضًا.

ما هذا؟ إنها إحدى زجاجات الدواء الخاصة بها, لم يُلْقها ولدي.. يبدو أنها لم تستعملها بعد، ويبدو أنها غالية الثمن أيضًا فقرر ولدي أن يسترجع ثمنها, خاصة أن أحد أصدقائه القدامى صيدلي, طالما جاء إلينا وهو صغير وأكل من يدها أطيب المأكولات.. لقد كانت تحبه كأنه ابنها الثاني.

لقد كانت تأخذ من هذا الدواء أربع نقاط على نصف كوب ماء.. أذكر أن الطبيب كان في كل مرة يؤكد على هذه النقاط الأربع، حتى إنها قالت له في إحدى المرات:

- يا دكتور.. الدوا الوحيد اللى طعمه حلو تكون زيادته خطر على حياتي؟! ما كنت تقول لي على دواء الضغط انه هو اللى خطر.. ده طعمه مر قوي!!

ضحك الطبيب ضحكة حانية وقال لها:

- يا حاجة، أي دوا زيادته فيها ضرر على حياة الإنسان.

لقد ذكرت أن مذاقه حلو, لم أذق في حياتي دواء له مذاق حلو.. وضعت من الزجاجة على كوب ماء, لم أستخدم القطارة.. لأول مرة في حياتي أذوق شيئًا بهذا الطُعم, حتى إني تخيلت للحظة أنَّ أنهار الجنة لها نفس الطعم.. لدرجة أني لا أستطيع أن أقاوم تلك الرغبة, نعم لا أستطيع أن أقاوم, ولن أقاوم.

دون تردد فعلت وألقيت الزجاجة بعد أن أفرغت ما بها كله في فمي, لم أترك منها قطرة واحدة إلا وقد دخلت جوفي, وشعرت بها وهي تسرى بأحشائي, طعمه لذيذ جدًا.. جدًا.. جدًا.

"مريم؟!!" إنها هي, لقد عادت.

- "لقد عدتِ يا مريم، قلت لهم إنك لم تموتى فلم يصدقوني.. الحمد لله، الحمد لله!".

إنها تقترب مني, عادت صبية كالمرة الأولى التي رأيتها فيها,

إنها تقترب، لقد دبت فيها الصحة مرة أخرى, أشعر أني أيضًا قد صغرت سني إلى ما قبل الثلاثين.. ما زالت تقترب, وأنا بدأت الحركة إليها, هي تقترب مني وأنا أقترب منها, كنت أعرف أنها لن تذهب بعيدًا، وبالفعل لم تذهب بعيدًا, إنها ما زالت تقترب وتقترب وتقترب وتقترب.

***

واكتمل القمر

إنْ تكُنْ تبحث عن مسكن الروح. . فأنت الروح
إنْ كنتَ تفتّش عن قطعة خبز. . فأنت الخبز
وإنْ تستطعْ إدراكَ هذه الفكرة فسوف تفهم
أنَّ كل ما تبحث عنه هو. . أنت

«جلال الدين الرومي

اكتمل القمر وأتمَّ شهره التاسع، وبدأ في ثورة يثبت وجوده، بدأ يدب بيديه وقدميه كل الأنظار المنتظرة خلف بوابة ذلك الكهف الذي طالما حلم بالخروج منه.

اكتمل القمر وبدأت أطرافه الدقيقة تتلصص لتخرج من بوابة ذلك الكهف، وفجأة وكأن بوابة الكهف قد استحالت إلى فوهة بركان لفظت تلك الكومة اللحمية خارجها.. ما زال يصارع ليثبت أنه خرج, ما زالت يداه وقدماه الدقيقتان تتحركان في عنفوان حركات عشوائية ليس لها أي معنى أو تفسير.

تلقف ذلك المارد الأبيض تلك الكومة، وقد التفَّتْ حوله حاشيته ذوو الكمامات والملابس البيضاء.. وجد العيون كلها تنظر إليه, شعر أن تلك النظرات تتحرك على جسده العاري المغطى بذلك السائل اللزج الذي لازمه تسعة أشهر.

لم يكن يشعر تجاه ذلك السائل سوى بكل الألفة والدفء.. الآن هو يمقت ذلك السائل، ويشعر أن لزوجته تعيق حركته.

فجأة انفجرت تلك الكومة اللحمية في وجه كل الناظرين.. صرخ احتجاجًا على أن يكون دمية أو مسخًا ينظر إليه الجميع.. صرخ ليثبت لنفسه قبل أن يثبت للآخرين، أنه خرج.. ثم صرخ وصرخ.. وصرخ.

اكتمل القمر.. هو الآن نائم في سريره الحريري، على وسائد من السحاب الأبيض الناعم، تتطاير حوله كائنات بيضاء صغيرة لها أجنحة دقيقة، وعلى رءوسها هالات من الضوء تنير المكان، تشبهه

كثيرًا، وتنظر إليه.. ينظر إليها هو الآخر وهو يضحك
يداعبها بيديه المقبوضتين كأنهما حبتا لؤلؤ
صدر غانية رفضت ارتداء غيره.

اكتمل القمر.. بدأ يعرف فائدة أطرافه،
ليتخبط به في الدنيا، وأن اليد ليبطش بها
الأشياء، وأن القدم توقعه إذا استخدمها.

اكتمل القمر.. خرج من بين تلك الأيادي التي
غير هذين الوجهين اللذين ألفهما؛ لأنه لم يكن
بدأ يخرج من أحضان الناس مكتفيًا بالتشبث بأيدي
الأرض بقوة وكأنه مارد عملاق.. سقط كثيرًا، لكنه دائمً
يرفعه.. سقط وصرخ.. سقط وحاول.. سقط وضاق صد
ووقف مرة أخرى.. عاد عملاقًا، لكن دون أن يتشبث بأي

اكتمل القمر وبدأ من حوله يرسمون له مستقبله.. الآن
يحمل همًّا.. الآن أصبح يحمل هدفًا.. الآن أصبح دبيبه على الأر
معنى.. بدأ يتفهم الأشياء من حوله.. بدأ ينظر إلى كل تلك الكو
التي تحيط به، وأخذ يقلدها في صور هزلية ساخرة.. بدأ ينتق
من كل منها صفة، ويضعها حبة في حبل من النور لفه حول عنقه
بعض تلك الحبات أبيض اللون، والبعض الآخر أسود.. ما زال الحبل
طويلًا، وما زالت الحبات كثيرة.. وما زالت عملية الانتقاء والتثبيت في
الحبل مستمرة في شغف ولهفة وانبهار.

اكتمل القمر وزادت الكواكب حوله، وبدأ يتوه في الزحام، حيث
يصعب تمييزه من بينهم، فقد دخل في دنيا جديدة، تختلط فيها

الأقمار بالكواكب بالشهب بالنيازك.. وهناك أيضًا عالم النجوم، ذلك العالم الذي كان يظن أنه من نفس عالمه، لكن بدأت الفروق بين العالمين تتضح رويدًا رويدًا كأنها انقشاع ضباب.. وإن كان هناك بعض الأشياء بين العالمين ما زال يخيم عليها الضباب، وبدأ ينبع من ذلك الاختلاف شغف للمعرفة بدأ يزداد يومًا بعد يوم.. وما زال جمع الحبات مستمرًا، وما زال الحبل طويلًا.

اكتمل القمر وبدأت المخلوقات من حوله تتشابه.. لم تعد للكواكب رهبتها في قلبه، ولم يعد للنيازك بريقها الأخاذ، ولم تعد للشهب ذيول، ولم يعد للنجوم سحرها وجاذبيتها وغموضها.

مر القمر بمرحلة العادي واللامبالاة.. بدأ بالنظر إلى العقد حول رقبته، وبدأ ينتقي من حباته ما ينفعه فقط، وليس بالضرورة ما ينفعه هو الحبات البيضاء فقط، بل هو خليط من الحبات البيضاء والسوداء، وبدأ في انتقاء بعض من هذه الحبات، بيضاء وسوداء، وأخفاها في طيات ثيابه ليخرجها وقت الحاجة.. وتخلص من بعض الحبات التي وجد أنها تثقل حمله وليس لها فائدة.

اكتمل القمر وبدأ يفكر في عالم النجوم مرة أخرى، لكنه هذه المرة لم يعد يفكر فيه بشغف الماضي ولا بلامبالاة الحاضر، ولكن بعين وحلم المستقبل، حيث الاستقرار والاطمئنان، والحياة على السحب البيضاء، والتفاف الملائكة ذوي الهالات المضيئة حول هذه السحب.

بدأ في اختيار نجمة من وسط النجوم، واتخذ حبات العقد مقياسًا للتوافق بينهما، فمن تطابقت حبات عقدها مع حبات عقده فازت بالقمر.. لم ينسَ أيضًا الحبات المخفاة في طيات ثيابه، لكنه أغفل

أن للنجوم ثيابًا أكبر وبها طيات أكثر وأوسع.. وأعمق.

اكتمل القمر وكان حفلًا ساهرًا ملأه المحبون والحاقدون, ملأته الكواكب والأقمار والنجوم والشهب والنيازك.. وكانت السحب.. لم تكن بيضاء كما تخيلها تمامًا، ولم تكن الملائكة حولها طوال الوقت، فأحيانًا كان من يلتف حول السحب كائنات حمراء لها ذيول طويلة وقرون، وأحيانًا أنياب.

اكتمل القمر وبدأ يخرج من نوره لآلئ صغيرة.. في البداية لم يكن يعرف من أين أتت، لكنه مع الوقت وجد بين حبات عقدها وبين حبات عقده تشابهًا كبيرًا.. بدأت تلك الكائنات تأخذ من عقده ما يشاء وهو راضٍ.. بدأت تأخذ من حباته أنفعها له وهو مبتسم وغير مكترث لذلك، بل وليس نادمًا على عناء السنين في جمع تلك الحبات..

اكتمل القمر وبدأ يتحسس الحبات المتبقية في عقده.. بدأ يفيق.. كيف رضي أن تؤخذ منه حبات عقده بهذه السهولة؟! كيف لم يشعر بها وهي تتسرب منه الواحدة تلو الأخرى، وبدأ يجترُّ ذكريات بعض الحبات التي قد أنفق كثيرًا من حياته وكرامته وأمواله في الحصول عليها، وفي النهاية هي معلقة في أعناق لآلئه التي بدأت في الابتعاد عنه.. لقد أوشك عقده على الانتهاء.. لقد أصبح عقده مجرد حبل.

اكتمل القمر وملأته الثنايا والتجاعيد وثقلت حركته.. عاد القمر يدب على الأرض ليثبت أنه عملاق مرة أخرى، ولكن نظرات من حوله لم تعد نظرات انبهار وإعجاب كما كانت، بل صارت نظرات شفقة وامتعاض.

بدأ يتشبث بالأشياء وبالآخرين حتى يتحرك، لكن الأيادي لم تكن حانية كما كانت، بل أصابتها القسوة والجفاف.. أثقل الخجل والخوف حركة القمر أكثر؛ فآثر السكون والنوم، وأيقن أنه لم يعد عملاقًا، ولم يكن عملاقًا يومًا من الأيام.

اكتمل القمر وهو الآن نائم على سريره المكوم عليه الأغطية الصوفية الخشنة.. اقترب منه نفس المارد الأبيض الذي كان أول ما رأى، وما زالت حوله حاشيته.. وجد العيون كلها تنظر إليه.. شعر أن النظرات تتحرك على جسده المصبب بالعرق.

بدأ يصرخ احتجاجًا على أن يكون مسخًا أو دمية ينظر إليها الجميع.. صرخ ليثبت أنه ما زال حيًا.. بدأت يداه وقدماه الدقيقتان تتحركان في عنفوان حركات عشوائية ليس لها أي معنى أو تفسير.

فجأة وجد أمامه ذلك الكهف الذي خرج منه.

استسلم القمر ثم هدأ كل شيء.

واكتمل القمر.

صدر عن الدار

تخاريف خريف	شعر	مؤمن المحمدي
كل ما صنع الحداد	شعر	محمود خيرالله
قطة وقديسة وجنية	شعر	عبد الرحيم يوسف
حدثتنا ميرا	رواية	لميس فارس المرزوقي
إف/هم	رواية	كمامي
زعماء وعشاق	مقالات	سيد عبد القادر
يا قليل الأدب	نصوص	ميشيل نبيل
المدينة الملعونة	رواية	سعيد البادي
حوار الطلظ	وثيقة	سعيد شعيب
المثقفون وكرة القدم	مقالات	أشرف عبد الشافي
الأخر في الشعر العربي	نقد	د. أيمن بكر
تفسر أعضاءها للوقت	شعر	وليد علاء الدين
يوميات من القرن الأفريقي	رحلات	علي العمودي
ألة الزمن	كوميكس	خالد الجابري
القطط أيضا ترسم الصور	قصص	أحمد شوقي علي
الشياطين لا تأتي عصرا	قصص	أشرف عبد الكريم
المهارات الأساسية للكتابة العربية	تعليم	د. محمد سعيد حسب النبي
مرة ١ مسلم و ١ مسيحي	مقالات ساخرة	محب سمير
أرقام سرية	شعر	ميسرة صلاح الدين
تدريس أدب الأطفال	تعليم	د. محمد سعيد حسب النبي
التربية العملية الميدانية	تعليم	د. محمد محمود موسى
		د. محمد سعيد حسب النبي
فتوات وأفندية	مقالات	د. ياسر ثابت
كائنات الورق	قصص	مالك عبيد
الطريق إلى قصر العروبة	سياسة	محمد علي خير
الضريح	رواية	كرم صابر
موسم الفراشات الحزين	رواية	اسامة حبشي
رائحة فرنسية	رواية	أسامة عبيد
مع ملائكة مكة	رحلات	سعيد البادي



شوق	رواية	خليل أبوشادي
حبّات التوت	قصص	عادل العجيمي
إغراء السلطة المطلقة	سياسة	بسمة عبد العزيز
همسات لها أجنحة	نصوص	سلطان الحجار
نهار خارجي	قصص	محمد عبد الرحمن
قراصنة المتوسط	تاريخ	مجموعة باحثين
ملك على الذكرى	شعر	أحمد كامل
المتهم	رواية	كرم صابر
مقدمات الثورة المصرية	سياسة	د. أيمن بكر
دماء على طريق الحرية	سياسة	حنان بدوي - حنان السمني
السلفيون ايضا يدخلون النارا	سياسي ديني	وليد طوغان
فراشة الميدان	رواية	سلطان الحجار
25 حكاية	قصص	عمرو القاضي
مريم العذراء والانتفاضة	رواية	كرم صابر
في انتظار وطن	سياسة	محمد علي خير
لأننا على قيد الحياة	قصص	ميشلين حبيب
الأصول السياسية للتنمية	اقتصاد سياسي	د.عمرو اسماعيل عادلي
كازينو بيض النعام	قصص	محسن راشد أبوبكر
الحية	رواية	ياسر سليم
ناشطة سياسية	رواية	سلطان الحجار
هذه الزُرقة البراقة	رواية	شتفان مولدُرفر
سيرة ذاتية لرئيس!	رواية	كرم صابر
أشياء تختفي	قصص مترجمة	جيني إربينبيك
جومابل زهدي	قصص	ايهاب بدوي
حرية الإرادة	فلسفة	دسيدريوس إيراسموس
رحلات ابن البيطار	رواية	علي بريشة
فردوس الزهراء	رواية مصورة	أمير وخليل
محمول	قصص مترجمة	إنجو شولتسه
سحر أسود & لذّات سرّية	رواية	حمدي الجزّار



كرسي المعسل هو كرسي الحياة، مقام الدنيا وجانبها الواقعي الذي ينسينا أن في الدنيا أكوان موازية في بعد زمني يساوينا في التوقيت فقط ولكنه يبعد عن عقولنا ملايين السنين الضوئية.. يعيش تلك الأكوان المهمشون والمجاذيب والمحبون والكادحون على لقمة عيش أطهر أو أحلى.. العابدون والملحدون والمترنحون على بوابة العدم المحتضرون والسكارى والمدمنون والمعذبون والراضخون الراضون بما قسمة الله لهم حد الاستكانة والذل..

كل هؤلاء يدورون كما تدور الأرض تحت أقدامهم في فلك صوفي بغية الترقى إلى الأعلى.. إلى الحد الأقرب من النشوة متدرجين من نشوة دخان كرسي المعسل مرورا بالانجذاب والسكر والتيه إلى العدم حيث ملاقاة الذات الإلهية والانتشاء المخلد في الجنان.. يرون أنهم خلقوا للدوران ويرون في الدوران عبادة ويرون في العبادة قرب ويرون القرب وسيلة لغاية الرضا والرضا غاية لا تدرك بل هو حلم نسابقه في حلقة دائرية.. كلما كثر الدوران كلما انقشع الضباب وزادت رؤيا البصر والبصيرة.. وكلما سرع الدوران كلما زاد السكر والانتشاء.. و"كلما اقتربت أكثر.. أدركت كم أنت بعيد"

عن ساكني هذه الأكوان الموازية نتحدث ...



إسلام قطب من مواليد الإسكندرية عام 1983 تخرج من كلية الهندسة، ويعمل بمجال البرمجيات، شارك فى كتابة عدة عروض مسرحية لفرق مستقلة بالثغر، وحصل على المركز الثاني فى مسابقة جامعة الإسكندرية للقصة القصيرة عام 2004، له العديد من القصص والمقالات المنشورة على المواقع الإلكترونية؛ و"كرسي معسل" هو كتابه الأول.

